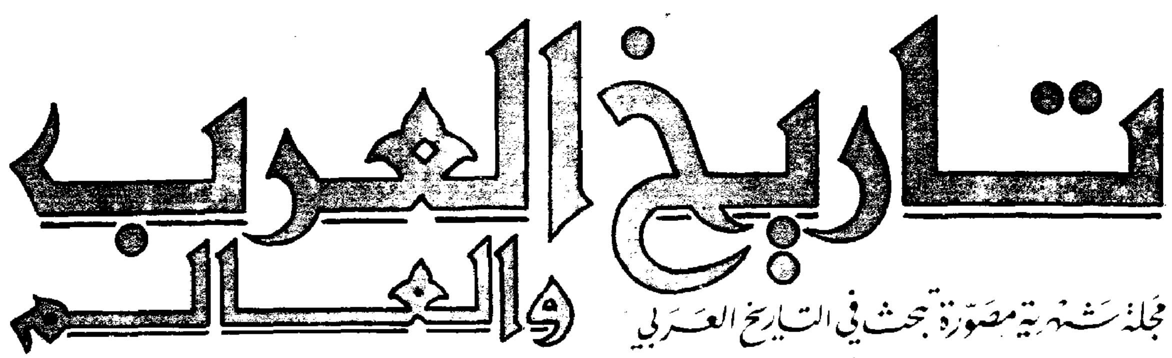
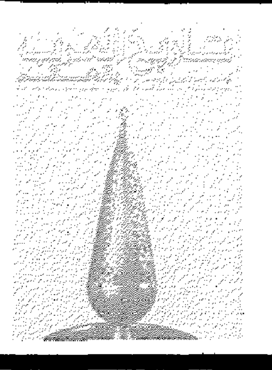


السنة العاشرة ● العددان ١٢١ ـ ١٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ـ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٨ الموافق ربيع ١ / ربيع ٢ ـ ربيع ٢ / جمادى ١ ١٤٠٩هـ

□ سبيل ماء، أنشأه السلطان المملوكي قايتباي عام ١٤٨٢م، إلى الغرب من قبة الصخرة.
من كتاب: Abdulhamid's Palestine. by Jacob M. Landau (London-1979).



الغلاف الخارجي:
□ محرقة بخور عثمانية من الفضة الخالصة (١٠٣٣هـ/١٦٢٤م).
من كتاب: Tulips, Arabesques and Turbans Decorative Arts from the Ottoman Empire. Edited by Yanni Petsopoulos.

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

العددان ١٢١ ــ ١٢٢ • تشرين الثاني ــ كانون الأول ١٩٨٨

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في كل شهرين

السنة العاشرة • المجلد الرابع عشر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٧٥٠ ل.ل.	سوريا	٣٥ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٥ دولار
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥ دولار
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ١٠٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان • بناية أبو هليل
شقة ١١ • شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣.

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
BIMONTHLY PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 14. No. 121/122. Nov-Dec 1988

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

□ **الأندلس في عصر ابن زيدون**
ملاحظات جغرافية
(الجزء الثاني)
د. نقولا زيادة ٢

□ **سور وأبواب بيروت العثمانية**
د. حسان حلاق ١٤

□ **البلقنة: مشاكلها وحلولها**
د. لطفي المعوشي ٢٧

□ **رجال وأفكار**
وليام شكسبير (١٥٦٤ ــ ١٦١٦)
إلياس فياض طراد ٣٧

□ **المنبر الحلبي للمسجد الأقصى**
المهندس د. محمود فيصل الرفاعي.... ٤٠

□ **ذكريات.. أصبحت تاريخاً**
اختطاف بن بيلا ورفاقه
بداية نهاية الاستعمار في الجزائر
ترجمة: د. رياض العالي........................ ٥٢

□ **معاهدات: معاهدات الخليفة عمر بن الخطاب مع أهل مدن إيرانية**
إعداد: شذا عدرة........................ ٦٢

□ **مدن عربية تحت الاحتلال**
مدينة بير السبع
إعداد: قسم التوثيق والأبحاث........ ٦٥

□ **شهادات من الخارج** ٧٤

□ **فهرس العام للسنة العاشرة (١٩٨٨)** ٧٦

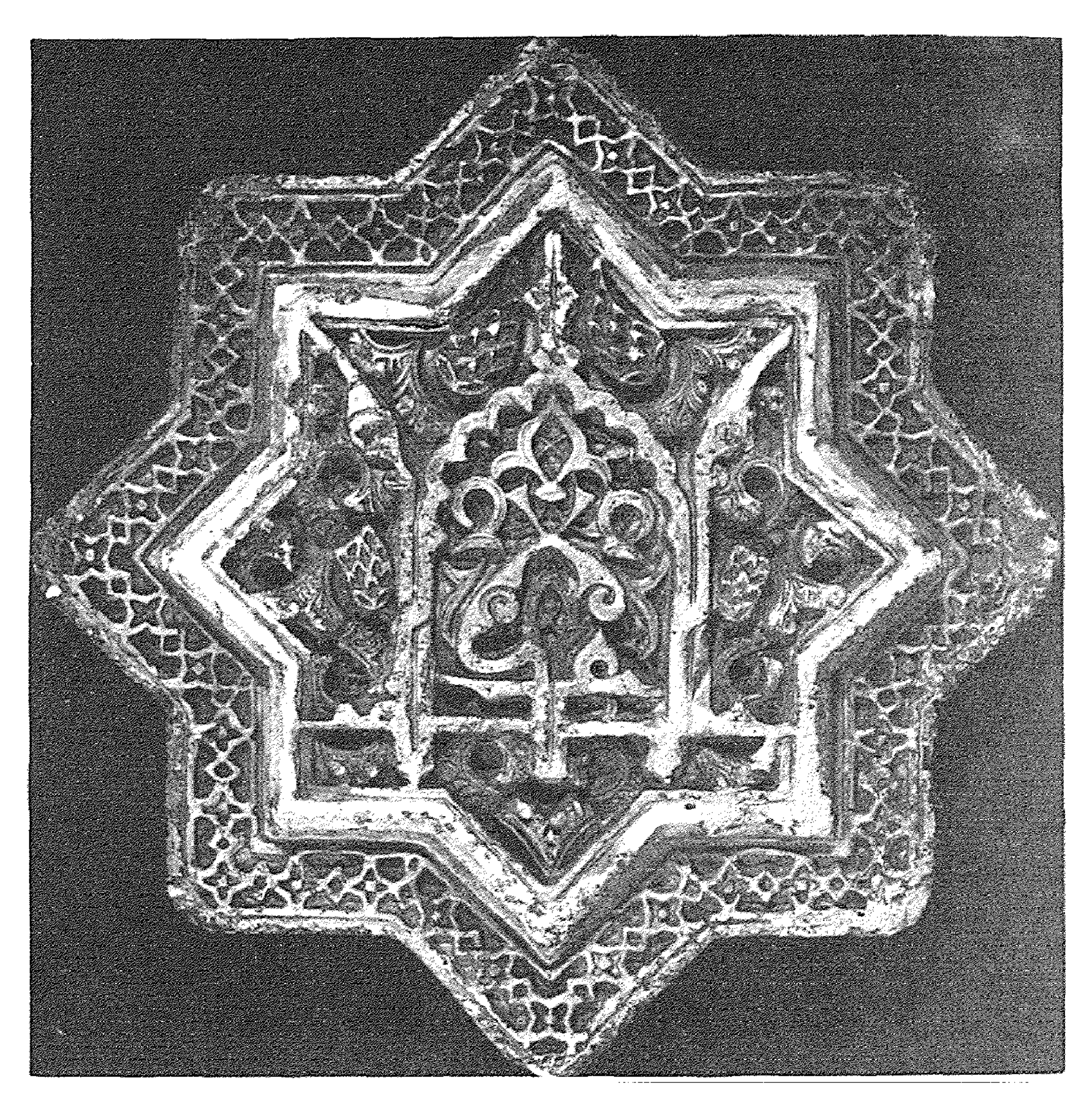
□ **صورة من الماضي**........................ ٨٠





مقدمة

ولد أحمد بن عبد الله بن زيدون في قرطبة سنة ١٠٠٣/٣٩٤ وتوفي في اشبيلية سنة ١٠٧١/٤٦٣. وقد كانت أسرته ذات مكانة مرموقة، علماً وثراءً ونفوذاً، مما يسّر له حظاً كبيراً من العلم وصحبة علية القوم في قرطبة، ولعل ذلك كله كان مما أثار في نفس ابن الوليد طموحاً للرئاسة. وقد كان ذلك، بحسب طبيعة العصر وسنته، أمراً مألوفاً. فالحياة السياسية في الأندلس بعامة، وفي قرطبة بخاصة، كانت قد تفشّى فيها من الفوضى أدواء، وعمّها من الاضطراب أنواء، وضعفت الخلافة الأموية فيها حتى عن الحفاظ على المقام المحترم بله النفوذ، وطمع في الرئاسة والنفوذ الكثير من أصحاب الهمّة والثروة. ويبدو أن ابن زيدون كان في ذلك مشاركاً، حتى أنه لعله اسهم في الحركة التي قامت سنة ١٠٣١/٤٢٢ ففي طبة فأنهت الخلافة وسلمت الأمر إلى ابـي الحزم بن جهور، وهو الذي أنشأ في المدينة حكماً جديداً على غرار ما كان قد بدأ من قبل في مالقة، وما تبـع فيما بعد في غيرها، مما عرف باسم ملوك الطوائف.



□ شكل نجم من الجَص، يعكس التأثير الإسلامي في البناء الإسباني (القرن الثالث عشر أو الرابع عشر ميلادي).

٤ ــ كتب أخرى

إنه من حسن حظ الباحثين في الحياة الاقتصادية للأندلس، في الوقت الذي نتحدث عنه، أن تكون بين أيديهم مجموعة من الكتب ذات القيمة الفنية أو التقنية وغيرها مما تحتوي على نواح فقهية أو إدارية. ونود أن نشير هنا إلى كتاب الأنواء المنسوب إلى عريب بن سعد والذي يعود إلى سنة ٣٥١ / ٩٦١(٧).

وهذا الكتاب يتناول أموراً تتعلق بالمناخ والطقس والزراعة ومواعيدها. ولعل خير ما يوضح الغاية من الكتاب هو أن ننقل هنا تعريف المؤلف بكتابه.

قال أبو الحسن غريب بن سعد الكاتب عفا الله عنه وعنا:

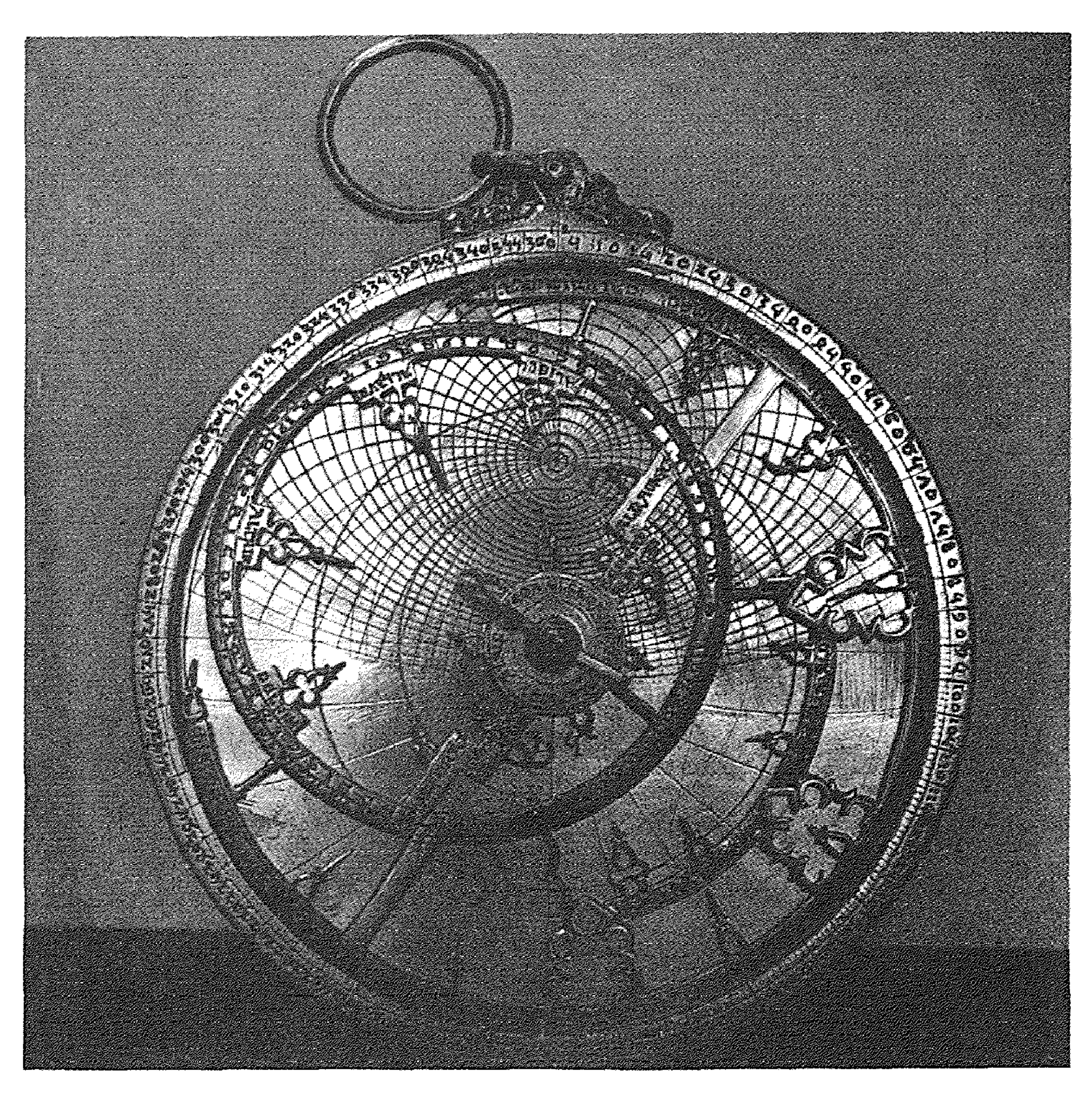
هذا كتاب جعل مذكراً بأوقات السنة وفصولها وعدد الشهور وأيامها ومجاري الشمس في بروجها ومنازلها وحدود مطالعها وقدر ميلها وارتفاعها واختلافها في الظل عند استوائها وتصرف الأزمان وتعاقب الأيام بالزيادة والنقصان وفصل البرد والحر وما بينهما من التوسط والاعتدال وميقات كل فصل وعدد أيامه على مذهب أهل التعديل والحساب ومذهب الأوائل من الأطباء الذين حدوا الأزمنة والطبائع

إذ كان بينهم في فصل السنة اختلاف سيأتي عليه الاستجلاب ويقع في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله، وذكر ما لا غنى عنه للناس من معرفة الزراعة وحين الغراسة وتعاهد كثير من أسباب الفلاحة وإمكان جني الثمارات وضم الذخر والأقوات وابتداء نضج الفواكه ومواقيت النتاج وغير ذلك من مرافق الناس ومصالحهم، والأزمنة التي توافق تنقية أجسامهم بالدواء والفصد وأوقات جمع العقاقير والبزور وعمل الأدوية والأشربة والمربيات في أوانها وحين إمكانها، وعلم تصاريف الرياح ومذاهب العرب في الأنواء والأمطار إذ كانت تعنى بها وتحتاج إلى تحديد مطالع النجوم ومساقطها والممطر والمخوي منها لتقلبهم في الطلب للمعاش والانتقال إلى مواضع المياه، فكانوا مع طول الارتصاد والارتقاب وكثرة التعاهد والاهتبال قد جربوا أوقات الأنواء والأمطار عند تنقل الكواكب من الطلوع إلى السقوط، وزعموا أنه لا بد لنوء كل كوكب من مطر أو برد أو ريح أو حر، ونسبوا ذلك إلى الغارب دون الطالع، وجعلوا ما كان منهما مختبراً بالقطر وغير خائب النوء والمطر أناثاً وذوات نتاج، وما لا نوء له ولا مطر يأتي معه ذكوراً لا تنتج ونحوساً لا تنفع، فإذا لم يكن في نوء النجم مطر قيل: (أخوى نجم كذا)، وقيل: (لم يجيء بربيع)، ولذلك قالت ليلى الاخيلية للحجاج لما قال لها، (ما أتى إلينا يا ليلى؟) قالت: (اخلاف النجوم وقلة السحاب) وحدوا لكل منزل من منازل القمر حداً يكون النوء فيه وأياماً وسموا أمطار تلك الأنواء بأسماء تعرف بها، وقسموا منازل القمر على فصول السنة لتعلم مواقيت أنوائها، ومعنى النوء سقوط أحد المنازل في المغرب مع الفجر، فيقال: «ناء ذلك النجم للغروب) أي: مال، وقال الله عز وجل: (ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) أي: لتميل بها من ثقلها، ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً، يبدو منها للناظر ١٤ منزلاً ويخفى ١٤ منزلاً، فكلما غاب من هذه المنازل الظاهرة واحد في المغرب طلع في الساعة رقيبه من المشرق، وسقوط كل منزل منها على ثلاثة عشر يوماً ما خلا الجبهة، فإنها تسقط على ١٤ يوماً، وكذلك ينقضي عدد أيام السنة ويسقط بانقضائها جميع الثمانية والعشرين منزلاً ويرجع الأمر إلى المنزل الأول في أول السنة التالية بتدبير العزيز الحكيم، فذكرت العرب سقوط هذه المنازل في المغرب أنواء رددوها في أشعارهم وأسجاعهم وجعلوها علامات لأمطارهم وأرياحهم وتقلب أزمانهم كما جعلوا الرياح اللواقح والسحاب المخيلة والبرق الجنوبية علامات للأمطار وبشراً بين يدي رحمة الله عز وجل، فاستبشروا بريح (الجنوب وتمنوها وحمدوا) السحاب التي تنشأ منها وكرهوا ريح الشمال وسموها (محوة) لأنها (تمحو السحاب)، وكانوا إذا رأوا البرق لامعاً من جهة الجنوب وما والاها استبشروا بالسقي ووثقوا بالسقيا معه، وإذا لمع من جهة الشمال سموه (خلباً) وإذا رأوا الحمرة في الآفاق عند طلوع الشمس وغروبها مع سحاب (متكاثف) استبشروا بها للخصب، وإذا رأوا الحمرة بغير سحاب أو مع يسير منه توقعوا معها الجدب، والأمر لله الواحد القهّار، (ولا إله إلا هو).

ولا يتسع المجال الآن للتحدث عن كتب الفقه مثل ديوان الأحكام الكبرى وأحكام ابن سهيل أو كتب النوازل. ولكن لا بد من الإشارة إلى كتب الحسبة وأهميتها في دراسة الحياة الاقتصادية ــ صناعة وتجارة وتنظيماً.

والذين كتبوا في الحسبة في مشارق دار الإسلام ومغاربها كثر، إلا أننا نقتصر هنا على اثنين لتوضيح دور مثل هذه الكتب في تزويدنا بالمعلومات الهامة عن المواضيع التي نشير إليها الآن، المؤلفان هما السقطي وابن عبدون.

كان أبو عبد الله محمد بن أحمد السقطي فقيهاً عالماً رحالة من أهل مالقة في الأندلس، وقد تولى عمل المحتسب في تلك المدينة أواخر القرن الحادي عشر أو أوائل القرن الثاني عشر للميلاد. ويبدو أنه وضع كتابه (في آداب الحسبة) وهو بعد في تلك الولاية. والكتاب مقسم إلى ثمانية أبواب بعد مقدمة تناول المؤلف فيها الحسبة بشكل عام. وقد أفاد مؤلفان مغربيان متأخران من كتاب السقطي هما عبد الرحمن الفاسي من أهل القرن الحادي عشر (السابع عشر) إذ ضمن مادته تحت علم الحسبة في (كتاب الأقنوم في مبادىء العلوم) أما الثاني فهو مجهول



□ اسطرلاب، صنع، على الأرجح، في فرنسا حوالي عام ١٣٠٠م، على الشكل المغربي.

الاسم ولكن أثر السقطي يبدو واضحاً في مخطوط اسمه (التيسير في أحكام التسعير)، وقد أشير فيه إلى السقطى بالمالقي، أي نسبة إلى مدينته.

وقد عرفنا السقطي بكتابه في مقدمة لطيفة جاء فيها:

(الحمد لله الذي علمنا ما لم نكن نعلم، وفهمنا ما لم نكن نعرف ولا نفهم، وصلى الله على محمد نبيه ورسوله وسلم، وعلى آله الطيبين الطاهرين وشرف وكرم.

وبعد فإني لكثرة ما لزمت من الأسفار، وحملت من البلاد والأقطار، أيام رحلتي، وعنفوان شبيبتي وقوتي، وعرفني ثقات المسافرين، وأمناء التجار المتجولين، ألسنة الزمان، وحداث الحوادث من مكان إلى مكان، مع ما تصرفت فيه من الأشغال، وظهرت عليه بسبب الاشتغال، ونبهني على جلائه من رغب مني القرب، ونصح في الكشف عنه من أظهر في ولايتي الاعتقاد والحب، ممن كان شاهد واختبر، واستغنى بالتجربة عن الخبر، وحسنت في ذات الله نيته، وكرمت سجيته وطويته، وتحصل في فهمي، وتقرر في حقيقة علمي، من أخبار مفسدي الباعة والصناع بالأسواق وغشهم في الكيل والميزان وبخسهم واستعمالهم الخدع للناس في معاملتهم، والتلبيس عليهم في مداخلتهم وملابستهم، وإحراز الحسبة عليهم وتقلد النظر في أمورهم من لا يحسن لذلك تناولاً، ولا يعرف

من الحلال والحرام مفصلا ولا مجملاً، ما لم يسعني معه إلا التنبيه على مكرهم، والقول بالمعروف في نكرهم، لقول الله تعالى وتبارك، (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) مع أن الخطة لم تزل عظيماً شأنها، رفيعاً مكانها، وسيطة بين خطة القضاء والمظالم تجاذبهما في وجوه وتشاركهما، وتماثلهما في أمور وتشابكهما، فتجمع بين نظر شرعي وزجر سلطاني موقوفة على هيئة متقلدها وتنفيذ الحقوق للمعترف بها.

وممن خلف كتاباً نفيساً في شؤون الحسبة وواجبات المحتسب محمد بن أحمد بن عبدون من أهل إشبيلية. والمؤلف غير معروف إذ لم يترجم له أحد. وكل ما أمكن الوصول إليه، عن طريق دراسة المادة التي خلفها دراسة داخلية، هو أنه عاش في إشبيلية في أواخر القرن الحادي عشر أو أوائل القرن الثاني عشر، أي في الفترة التي تمتد من اعتلاء المعتمد عرش إشبيلية سنة ٤٦١ / ١٠٦٨ إلى انتهاء حكم المرابطين للمدينة سنة ٥٤١ / ١١٤٧. (احتل المرابطون إشبيلية سنة ٤٨٤ / ١٠٩١ وظلوا يحكمونها إلى أن انتزعها منهم الموحدون). وليس لدينا ما يؤكد أن الرجل تولى منصب الحسبة.

لكن كتابه حافل بالمعلومات التي يفيد منها المؤرخ الاجتماعي الاقتصادي فوائد كبيرة جداً. وقد وضع ابن عبدون رسالته في القضاء والحسبة: (نظراً منه لطيب نفسه، وإخلاص ودّه، وصحة يقينه، وطويته، ونصحه للمسلمين — حرسهم الله — على طريق الاحتساب عليهم، والتسديد لشأنهم، وإصلاح أحوالهم وأفعالهم، والنظر لهم، والجري إلى الخير والعمل به والسعي إلى العدل والتعلق به، ومن تغيير المنكر والعصيان المشهور، قمع الظلم والجور، إن قدر على ذلك، فالعدل أبداً مألوف والخير محبوب، والقوام مرغوب والخلاف مرفوض، والشر مبغوض، والحق أبلج والباطل معوج، والإهمال والغفلة، تكون الفقر والقلة، والسبب أن كل فساد وعلة، فيكثر الهرج والفساد، ويكون ذلك داعية لخراب البلاد، وجلاء العباد).

والذي رمى إليه المؤلف هو التشديد على السلطان بأن يحسن اختيار أصحاب المناصب الذي يعهد إليهم الإشراف على الشؤون العامة كصاحب المواريث والقاضي والمحتسب[٨].

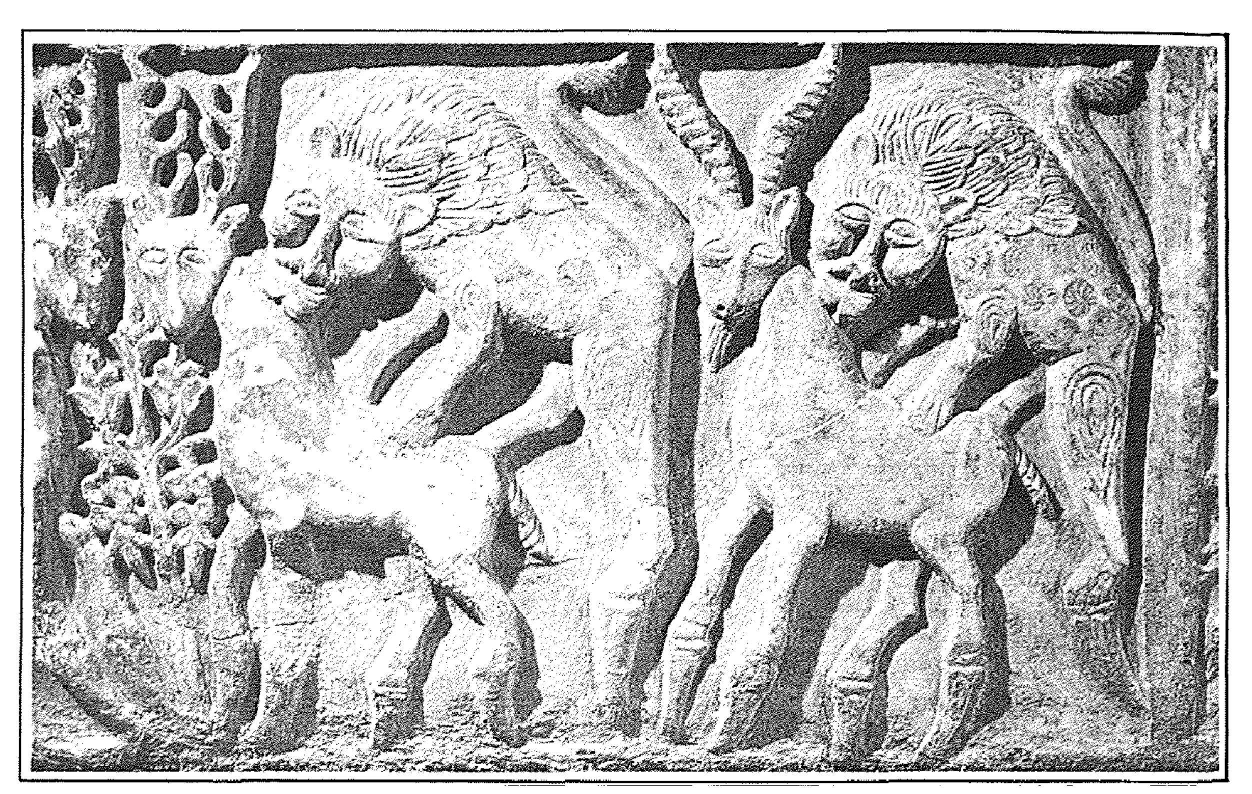
٥ — ملاحظات جغرافية

وصف الجغرافيون العرب الأندلس بأنها مثلث، واتخذوا لكل رأس من رؤوس المثلث الثلاثة نقطة مرتبطة بأسطورة وهي صنم قادس في الطرف الجنوبي الغربي ونقطة على خط عرض البليار وبوابة هرقليس على مقربة من كوروثة في الشمال الغربي[٩].

على أن الجغرافي الذي أدرك بحسه العلمي الصحيح حقيقة الوضع الطبيعي للأندلس هو أحمد الرازي. فهو صاحب القول بأن الأندلس أندلسان من حيث الرياح والأمطار والأنهار. فثمة أندلس غربية وأندلس شرقية. فالغربية هي التي تنحدر أنهارها غرباً نحو المحيط، وتتحكم الرياح الهابة من الغرب في الأمطار الساقطة هناك. أما الأندلس الشرقية فتتحكم الرياح الشرقية بأمطارها، وتتجه أنهارها نحو البحر الشامي (أي المتوسط)[١٠]. كما أن الرازي فهم أهمية الجبال الإسبانية واتجاهاتها. فهو يرى أن في إسبانية ثلاثة جبال. فيقول في ذلك:

وليس في الأندلس على ما عرفناه في الحقيقة إلا ثلاثة جبال تقطعه مستعرضة من البحر إلى البحر، ولا يقطع هذه الجبال نهر في أي موضع من مواضعها. وفي هذه الجبال حصون منيعة لكل حصن منها الأراضي الواسعة الكثيرة الخيرات، وأول هذه الجبال جبل قرطبة (Sierra Morena) ومبتدأه في شرق الأندلس عند ساحل البحر الذي يتوسط الأرض ماراً ببلنسية وباجة اشطمبار وإقليم الجوف ومنتهاه عند البحر الغربي الكبير.

أما الجبل الثاني فمبتدأه عند ساحل البحر الشرقي مقبلاً من ناحية أربونة، وهو الحاجز بي الأندلس وبلاد إفرنجة، والفرنجة تسمية جبل رنشفالة (Roncesvakkes)، ويسير موازياً لبلد بشقاية (Vizcaya) وبلد اشتريس ومنتهاه عند البحر في جليقية في أقصى الشمال.



□ جانب من حوض المرمر في قصر الحمراء في غرناطة، (منتصف القرن الحادي عشر ميلادي).

والجبل الثالث فمبتدأه عند البحر المتوسط مجاوراً لطرطوشة، ويمر غير بعيد من قرطبة ومنتهاه عند البحر الغربي على خمسة عشر مجرى من الاشبونة[١١].

وعندما تكلم الرازي عما يصح تسميته الجغرافية الإدارية أو السياسية للأندلس فإنه يفرّق بين الكور والمدن. فالكورة قسم إداري، والمدينة في الأندلس، مثل الكورة، قسم إداري له زمام واسع يشتمل على مدن وقرى وحقول واسعة. والمدينة، على ما يرى حسين مؤنس، كورة عسكرية تقوم في مناطق الثغور أو في منطقة هامة عسكرياً[١٢]. ويمكن توضيح الفرق بين الكورة والمدينة بالرجوع إلى عبارة الرازي في مثلين.

— الأول عن كورة بلنسية والثاني عن مدينة أشقة.

(كورة بلنسية: ويتصل بحوز كورة تدمير حوز كورة بلنسية، وهي شرق من تدمير وشرق من قرطبة، ولخطة بلدها مسافة بعيدة، ومنافعها لأهلها عظيمة. جمعت البر والبحر والزرع والضرع، ولها السهل والجبل).

(وبها مدن عظيمة وحصون قديمة، فمن مدائنها مدينة بلنسية، وهي المعروفة بمدينة التراب، ولها حصن أرغيرة، ودانية وهي على ضفة البحر، ولها أقاليم كثيرة متسعة، ومرساها من أعجب المراسي، وجميع أقاليمها وجبالها مغترسة بالكروم وأشجار التين والزيتون، ومدينة الجزيرة، ومبتناها على نهر شقر).

(ولها من المدن والمعاقل حصن شاطبة، وهو قديم أولى مطل على بطاح وأنهار، ومدينة مربيطر، ولها قصر يطل على بطحائها وعلى البحر، يحار فيه الناظر وتعجز عنه الحكاية).

(ويتصل بها إقليم بريانة، ولها أرض طيبة. ولها مدينة أنده، وهي كثيرة المياه غزيرة الفواكه، فيها معدن حديد. ولها مدينة شبرب، يجود فيها القمح والكتان. ولها حصن شارقة وغيره من الحصون. ومدينة جزيرة شقر فيما بين بلنسية وشاطبة)[١٣].

(وتتصل أحواز مدينة أشقة بأحواز مدينة تطيلة)، (وهي في جوفي أشقة وشرقي قرطبة)، حازت الغاية من شرف البقعة، وحوت طيب الزرع ودر الضرع وكثرة الثمار والأنهار. (وأنهارها كلها تنصب في نهر أبره)، ويطيف بجنات تطيلة نهر كالش، وهي أقصى ثغور

المسلمين وباب من الأبواب التي يدخل منها إلى أرض المشركين، (وعند باب تطيلة القنطرة المقامة على نهر أبره، وتحت أقواس القنطرة الأرحاء التي تدفعها مياه النهر أبداً)، واختطت تطيلة في أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية. (وكان الذي اختطها عمروس بن يوسف، وكان يوسف هذا عاملاً على سرقسطة وتوابعها).

(ومن كبار مدائنها طرسونة) وكانت مستقر العمال والقواد بالثغور، وكان أبو عثمان عبيد الله بن عثمان المعروف بصاحب الأرض اختارها محلاً وآثرها على مدن الثغور منزلاً. وكانت ترد عليه عشر مدينة أربونة وبرشلونة. ثم عادت طرسونة من بنات تطيلة عند تكاثر الناس بتطليا، وإيثارهم لها لفضل بقعتها واتساع خطتها.

(ولإقليم تطيلة مدن وحصون كثيرة، أخصها أرنيط (Arnedo) وهي مدينة أولية (وهناك أيضاً مدينة قلهرة ومدينة ناجرة وبقيرة (Viguera) ولها حصن في غاية المنفعة على ضفة نهر يفصل بينها وبين الجبل المطل عليها)[١٤].

ونجد ابن حوقل، بعد أن يصف جزيرة الأندلس من حيث إحاطة البحر بثلاث من جهاتها ومجاورة البر للجهة الرابعة يقول: (فينتهي من الأندلس حدان: حد إلى دار الكفر وحد إلى البحر المحيط)[١٥].

وما أكثر ما وردت أسماء المدن الأندلسية على ألسنة الجغرافيين، حتى قبل القرن الرابع / العاشر. وقد لفت هذا الأمر، أي كثرة المدن في الأندلس. نظر المؤرخين عبر العصور[١٦]. وقد أشار الاصطخري إلى أنها أكثر المدن جاهلية، أي إنها تعود إلى أيام قبل دخول العرب إلى الأندلس، وقال إن المدن التي بناها العرب قليلة وذكر بجانة وشنترين[١٧]. وإلى مثل هذا ذهب ابن حوقل[١٨]. ويذكرنا ليفي بروفنسال بأن أغلب المدن التي عرفتها إسبانية من أيام الرومان ظلت قائمة بعد الفتح العربي. ويضيف إن المدن التي بناها العرب أقاموها في مناطق ذات أهمية عسكرية — برية أو بحرية — للدفاع ضد هجوم من الخارج، مثل مرسية والمرية. وقد حافظت المدن على الصيغ القديمة، إنما عربت لتستقيم ولفظ العربية[١٩].

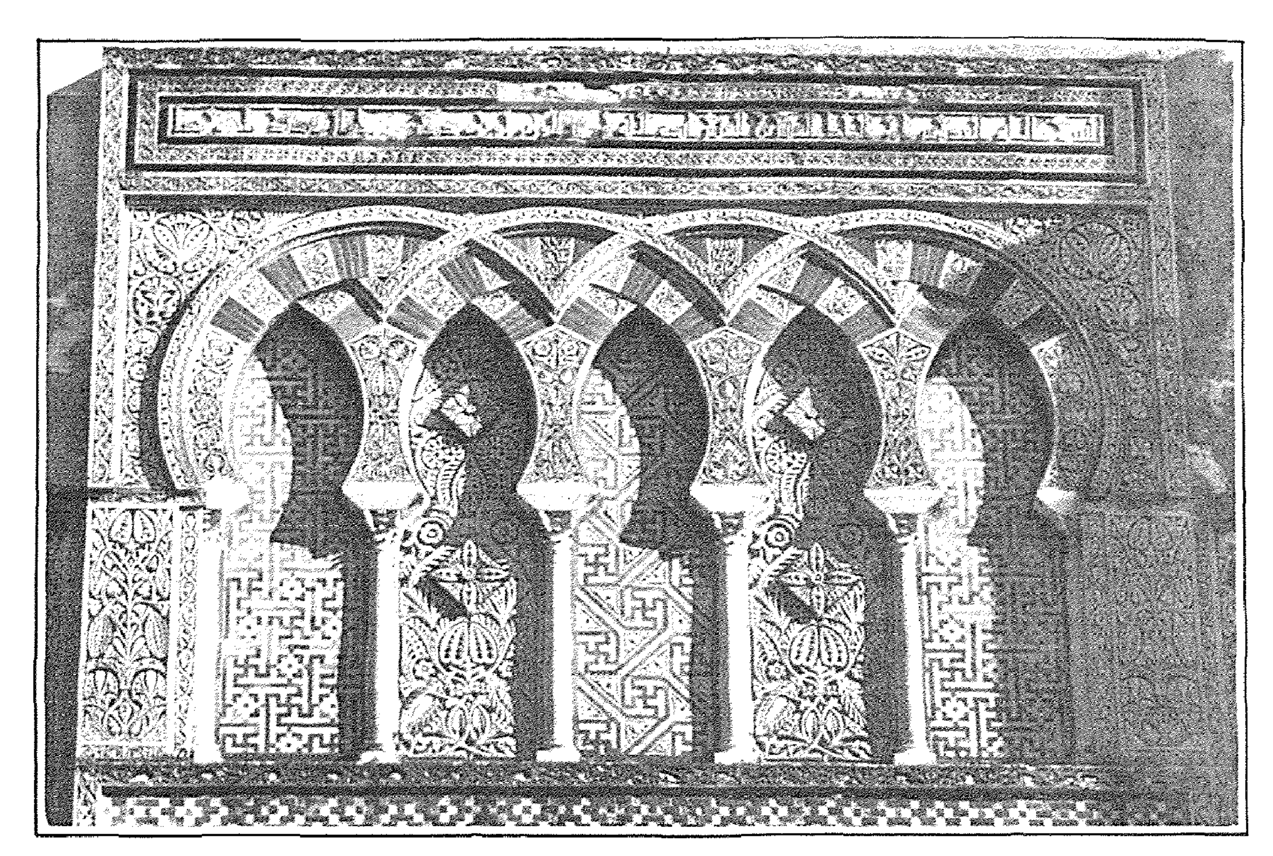
٦ — بعض النصوص الجغرافية

اكتفينا، في هذا البحث المقتضب، بالاهتمام بالجغرافيين الذين عاشوا فيما يمكن أن يسمى عصر ابن زيدون، أي في القرنين الرابع / العاشر والخامس / الحادي عشر، وأشرنا إلى الإدريسي هذا مع العلم بأنه تأخر نحواً من القرن عن أيام ابن زيدون، وذلك لأنه يمثل الدقة في التحري، ولأنه عرف الأندلس معرفة شخصية.

ونود أن نختم هذا البحث بمختارات من بعض الجغرافيين الذين أشرنا إليهم، رغبة منا في أن يتعرف القراء على الأدب الجغرافي الخاص بالأندلس.

يقول الاصطخري عن الأندلس:

وأما الغربي من المغرب فهو الأندلس، والأندلس بلدان عريضة كثيرة المدن خصبة واسعة، ومدينتها العظمى تسمى قرطبة، وهي من الأندلس في وسطها، والذي يحيط بالأندلس البحر المحيط، ثم يطوف بحر الروم بها إلى أرض افرنجة، فيأخذ من مدينة شنترين إلى أخشنبة ثم إلى إشبيلية ثم إلى سدونة ثم إلى الجزيرة ثم إلى مالقة ثم إلى بجانة ثم إلى بلاد مرسية على مدينة لقنت إلى بلاد بلنسية ثم إلى طرطوشة وهي آخر المدن التي على البحر، ثم يتصل من جهة البحر ببلاد الافرنجة، ومن جهة البر بتصل ببلاد علجسكس، وهي بلاد حرب من النصارى، ثم يتصل ببلاد بسكونس وهم أيضاً نصارى، ثم يتصل ببلاد الجلالقة وهم نصارى أيضاً فينتهي من الأندلس حدان إلى دار الكفر وحدان إلى البحر، وهذه المدن التي ذكرناها على الشط كلها مدن كبار عامر، والأندلس في أيدي بني أمية ما افتتحت لبني العباس ولا قدر عليها عبيد الله، ولما زالت دولة بني مروان، عبر إليها من أزيلة المغرب إلى جزيرة جبل طارق بعض بني أمية فتغلب عليها، فهي في أيديهم إلى وقت تصنيفنا هذا الكتاب. ومن مشاهير مدن الأندلس جيان وطلطيلة ونفزة وسرقصطة ولاردة ووادي الحجارة وترجالة وقورية وماردة وباجة وغافق ولبلة وقرمونة ومورور واستجة ورية، وهي كلها مدن عظام، وليس فيها ما يقارب قرطبة في العظم والكبر، وأكثر أبنيتها من حجارة، وهي أبنية



□ جانب من الجدار الخارجي فوق إحدى بوابات جامع قرطبة الكبير.

جاهلية لا تعرف فيها مدينة محدثة إلا بجانة، فإنها محدثة في حد بلاد يقال لها البيرة وشنترين التي على البحر المحيط بها يقع العنبر، ولم نعلم ببحر الروم والبحر المحيط موضع عنبر إلا بشنترين وشيء وقع في أيام مقامي بالشام بسواحل الروم، وتقع بشنترين في وقت من السنة من البحر دابة، تحتك بحجارة على شط البحر فيقع منها وبر في لين الخز، لونه لون الذهب لا يغادر منه شيئاً، وهو عزيز قليل فيجمع وتنسج منه ثياب، فتتلون في اليوم ألواناً، ويحجر عليها ملوك بني أمية، ولا ينقل إلا سراً، وتزيد قيمة الثوب عن ألف دينار لغزته وحسنه. ومالقة سكانها عرب، وبها السفن الذي تتخذ منه مقابض السيوف، وجزيرة جبل طارق منها افتتح الأندلس في أول الإسلام، وجبل طارق جبل عامر حصين بالقرى والمدن، وهو آخر المعابر بالأندلس. وطليطلة مدينة في جبل عال، بناؤها من حجارة قد وثقت بالرصاص، وحواليها سبعة أجبل كلها عامرة منيعة مسكونة، وحولها نهر عظيم يقارب في الكبر دجلة، واسم هذا النهر تاجه، يخرج من بلد يقال لها شنتبرية. ووادي الحجارة مدينة هي وما حواليها من المدن والقرى تعرف بمدن بني سالم، ورية كورة عظيمة خصيبة، ومدينتها أرجدونة ومنها كان عمر بن حفصون، الذي خرج على بني أمية بها، وفحص البلوط كورة خصبة واسعة ومدينتها غافق، وقورية مدينة كانت كبيرة إلا أنها خربت بعصبية وقعت بينهم، فاستعان أحد الفريقين بالجلالقة النصارى حتى غربوها، وماردة من أعظم مدن الأندلس، وكذلك طليطلة، وهما ممتنعتان ليس بهما عامل لبني أمية، إلا أنه يخطب بهما لهم، وشنترين كورة عظيمة ومدينتها قلمرية. وثغور الجلالقة ماردة ونفزة ووادي الحجارة وطليطلة، ومدينة الجلالقة مما يلي ثغور الأندلس يقال لها سمورة، وعظيم الجلالقة بمدينة يقال لها أبيط، هي بعيدة عن بلدان الإسلام، وليس في أصناف الكفر الذين يلون الأندلس أكثر عدداً من الافرنجة، ويقال لملكهم قارله، غير ان الذين يلون المسلمين منهم أقل من سائر أجناس الكفر، لدخولهم في البحر، والحاجز الذي بينهم وبين الافرنجة من بلدان الشرك من غيرهم، ثم الجلالقة يتلونهم في الكثرة، وأقلهم عدداً

البسكونس وهم أشد شوكة، والذين يتلون البسكونس من ثغور الأندلس سرقسطة وتطيلة ولاردة، ويليهم قوم من النصارى يقال لهم علجسكس أقلهم غائلة، وهم الحاجز بينهم وبين الافرنجة[٢٠].

وعندنا وصف شاهد عيان للأندلس من قلم ابن حوقل. ومن هذا الوصف نقتصر على ما يلي:

وبالأندلس غير طراز يرد إلى مصر متاعه وربما حمل منه شيء إلى أقاصي خراسان وغيرها. ومن مشهور جهازهم الرقيق من الجواري والغلمان الروقة من سبى افرنجة وجليقية والخدم الصقالبة، وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان فمن جلب الأندلس، لأنهم عند قربهم منها يخصون ويفعل ذلك بهم تجار اليهود والصقالبة قبيل من ولد يافث، وبلدهم مستطيل واسع ولغزاة خراسان من ناحية البلغار بهم اتصال، فهم إذا سبوا إلى هنالك تركوا فحولة على أحوالهم مقرورين على صحة أجسامهم، وذلك أن بلد الصقالبة طويل فسيح، والخليج الآخذ من البحر المحيط بنواحي ياجوج وماجوج يشق بلدهم ويستمر مغرباً إلى نواحب اطرابزنده ثم إلى القسطنطينية ويقطع ناحيتهم بنصفين: فنصف بلدهم بالطول يسبيه الخراسانيون ويصلون، والنصف الشمالي يسبيه الأندلسيون من جهة جليقية وافرنجة وانكبردة وقلورية، وبهذه الديار من سبيهم الكثير باق على حاله، وسأذكر جميع ما بها من المجالب في جملة ما يرد من المغرب من التجارة والجهاز.

وبالأندلس الزئبق والحديد والرصاص، ومن الصوف قطع كأحسن مما يكون من الأرمني المحفور الرفيع الثمين إلى حسن ما يعمل بها من الأنماط. ولهم من الصوف والأصباغ فيه وفيما يعانون صبغه بدائع بحشائش تختص بالأندلس، تصبغ بها اللبود المغربية المرتفعة الثمينة والحرير وما يؤثرونه من ألوان الخز والقز، ويجلب منها الديباج، ولم يساوهم في أعمال لبودهم أهل بلد على وجه الأرض، وربما عمل لسلطانهم لبود ثلاثينية يقوم اللبد منها بالخمسين والستين ديناراً، غير أنه قد جعل عروضها خمسة وستة أشبار فهي من محاسن الفرش، ويعمل عندهم من الخز السكب والسفيق ما يزيد ما استعمل منه للسلطان على ما بالعراق، ويكون منه المشمع فيمنع المطر أن يصل إلى لابسه. وأما أسعارهم فتضاهي النواحي الموصوفة بالرخص وكثرة الخير والسعة. وفواكههم مع طيبة فيها وسطة فكالمباحة التي لا ثمن لها. ويعمل في أقطار بلدهم من الكتان الدني للكسوة ويجلب إلى غير مكان، حتى ربما وصل إلى مصر منها الكثير. فأما أرديتم المعمولة ببجانة فتحمل إلى مصر ومكة واليمن وغيرها ويستعمل عندهم للعامة وللسلطان من الكتان ثياب لا يقصر عن الديبقي ما كان منها صفيقاً، ومن السلس الدقيق ما يستحسنه من لبس الشرب ويضاهي رفيع الشطوى الجيد، وقل سوق بها يصير إليه أهله إلا على الفاره من الركوب. ولا يعرف فيهم المهنة والمشي إلا أهل الصنائع والأرذال، وتختص بالبغال الفره وبها يتفاخرون ويتكاثرون. ولهم منها نتاج ليس كمثله في معادن البغال المذكورة وأصقاعها المشهورة من أرمينية والران وباب الأبواب وتفليس وشروان، لأنها تبدن وتصنع وتنجب ويجلب إليهم منها شيء حسن الشية عظيم الخلق كثير الثمن من جزيرة ميرقة، وهي جزيرة لعبد الرحمن بن محمد فيها المسلمون منقطعة، تلي ناحية افرنجة واسعة الخير كثيرة الثمار رخيصة الماشية لكثرة المراعي غزيرة النتاج والمواشي معدومة الحوائج قليلة الآفة، وليس بها عاهة ولا وحش يؤذيهم في سائمتهم. ورأيت منها غير بغل بيع بخمس مائة دينار وإليها يرغب ملوكهم بمراكبهم وإياها يستوطئون ويؤثرون فيما يركبون. فأما ما يبلغ منها المائة والمائتي دينار فأكثر من أن يحصي، وليس ذلك لأنها أزيد على البغال الموصوفة بحسن السير وسرعة المشي فقط، بل جمعت مع ذلك عظم الخالق وحسن الشية إلى اختلاف الألوان الصافية الصافية والشعور الدهينة المشرقة والصحة على مر الأيام، مع الصبر على الكد والعسف[٢١].

والمقدسي مع أنه لم يزر الأندلس فقد تحقق من الروايات التي بلغته. ولذلك نرى لزاماً علينا أن ننقل شيئاً، ولو قصيراً، مما دوّن في كتابه. يقول: قرطبة هي مصر الأندلس سمعت بعض العثمانية يقول هي أجل من بغداد في صحراء

يطل عليها جبل ولها مدينة جوانية وربض الجامع في المدينة. وأسواق وأغلب الأسواق ودار السلطان في الربض قدامها واد عظيم سطوحهم قراميد الجامع من حجر وجيل وسواريه رخام. حواليه مياض وللمدينة حمسة أبواب باب الحديد باب العطارين باب القنطرة باب اليهود باب عامر. وقد دلت الدلائل واتفقت الإراء على أنه مصر جليل رفق طيب وإن ثم عدلاً ونظراً وسياسة وطيبة ونعماً ظاهرة وديناً وإن ناحية الأندلس. على سجية هيطلأبداً ثم غزاة أبداً في جهاد ونفير. مع علم كثير وسلطان خطير وخصائص وتجارات وفوائد. وحدثني بعض الأندلسيين أنها ثلاثة عشر رستاقاً، على خمسة عشر ميلاً أرجونة مسورة ليس لها بساتين وأشجار لكنها بلد الحبوب ولهم عيون ومزارعهم على المطر. وقسطلة على ثلاثة عشر ميلاً من أرجونة وهي في سهلة كثيرة الأشجار والزيتون والكرمات ومشاربهم من آبار ويسقون البساتين بالسواني. شوذر على ثمانية عشر ميلاً من قرطبة وهي في سهلة كثيرة الزيتون جداً شربهم من أعين. مارتش على خمسة عشر ميلاً من قرطبة وهي جبلية ليس لها غير الكرمات ولهم أعين. وقنبانش على خمسة عشر ميلاً وهي سهلية ذات مزارع أكثرها بموضع يقال له قنبانية مشاربهم من آبار. وفج ابن لقيط على خمسة وعشرين ميلاً في سهلة كثيرة المزارع شربهم من آبار. وبلاط مروان على بعد ثلاثين ميلاً لها واد جرار سهلية ذات مزارع. وبريانة ذات مزارع سهلية شربهم من آبار وفيها حصن من حجارة والربض حوله والجامع في الحصن والأسواق في الربض. وحصن بلكونة كثيرة الزيتون والأشجار والعيون مسورة بحجارة شربهم من عين واحدة وآبار على أربعين ميلاً من قرطبة. الشنيدة على جبل كثيرة الكروم والمزارع والتين والعنب شربهم من أعين وآبار على يومين من قرطبة[٢٢].

وقد خص الإدريسي الأندلس بقسط وافر من كتابه نزهة المشتاق. وها نحن أولاً ننقل عنه قطعتين ــ الواحدة عن طليطلة والأخرى عن المرية.

يقول الإدريسي عن طليطلة:

ولمدينة طليطلة بساتين محدقة بها وأنهار جارية مخترقة، ودواليب دائرة، وجنات يانعة، وفواكه عديمة المثال، لا يحيط بها تكييف ولا تحصيل، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة، وقلاع منيعة، تكنفها. وعلى بعد منها في جهة الشمال الجبل العظيم المتصل المعروف بالشارات، وهو يأخذ من ظهر مدينة سالم إلى أن يأتي قرب مدينة قلمرية. وفي هذا الجبل من الغنم والبقر الشيء الكثير الذي يتجهز به الجلابون إلى سائر البلاد، ولا يوجد شيء من أغنامه وأبقاره مهزولاً، بل هي في نهاية السمن، ويضرب بها في ذلك المثل في جميع أقطار الأندلس. وعلى مقربة من طليطلة قرية تسمى بمغام، وجبالها وترابها الطين المأكول، الذي ليس على قرارة الأرض مثله، يتجهز به منها إلى أرض مصر وجميع بلاد الشام والعراقات وبلاد الترك، وهو نهاية في لذاذة الأكل، وفي تنظيف غسل الشعر، ولطليطلة في جبالها معادن الحديد والنحاس، ولها من المنابر في سفح هذا الجبل مجريط، وهي مدينة صغيرة، وقلعة منيعة معمورة، وكان لها في زمن الإسلام مسجد جامع، وخطبة قائمة، ولها أيضاً مدينة الفهمين، وكانت مدينة متحضرة، حسنة الأسواق والمباني، وبها مسجد جامع، ومنبر وخطبة، وهي كلها اليوم مع طليطلة في أيدي الروم وملكها من القشتالين، وينتسب إلى الأذفونش الملك[٢٣].

أما المرية فيقول عنها:

ومدينة ألمرية كانت في أيام الملثم مدينة الإسلام، وكان بها من كل الصناعات كل غريبة، وذلك أنه كان بها من طرز الحرير ٨٠٠ طراز، يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والأصبهاني والجرجاني، والستور المكللة والثياب المعينة، والخمر والعتابي، والمعاجر، وصنوف أنواع الحرير. وكانت المرية قبل الآن يصنع بها من صنوف الآلات النحاس والحديد، إلى سائر الصناعات، ما لا يحد ولا يكيف، وكان بها من فواكه واديها الشيء الكثير الرخيص، وهذا الوادي المنسوب إلى بجانة (Bichena) بينه وبين المرية ٤ أميال، وحوله جنات وبساتين وأرجاء، وجميع نعمها وفواكهها تجلب إلى المرية، وكانت المرية إليها تقصد مراكب البحر من الإسكندرية والشام كله، ولم يكن بالأندلس كلها أيسر من

أهلها مالاً. ولا أنجز منهم في الصناعات وأصناف التجارات تصريفاً وادّخاراً.

والمرية في ذاتها جبلان وبينهما خندق معمور، وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة. والجبل الثاني منهما فيه ربضها ويسمى جبل (لاهم) (Lahem) والسور يحيط بالمدينة وبالربض. ولها أبواب عدة ولها من الجانب الغربي ربض كبير عامر يسمى ربض الحوض، وهو ربض له سور عامر بالأسواق والديار والفنادق والحمامات. والمدينة في ذاتها مدينة كبيرة كثيرة التجارات، والمسافرون إليها كثيرون وكان أهلها مياسير، ولم يكن في بلاد أهل الأندلس أحضر من أهلها نقداً، ولا أوسع منهم أحوالاً، وعدد فنادقها التي أخذها عدا الديوان في التعيين ألف فندق، إلا ثلاثين فندقاً، وكان بها من الطرز أعداد كثيرة، قدمنا ذكرها. وموضع المرية من كل جهة استدارت به صخور مكدسة، وأحجار صلبة مضرسة، لا تراب بها، كأنما غربلت أرضها من التراب وقصد موضعها بالحجر، والمرية في هذا الوقت الذي ألفنا كتابنا فيه. صارت ملكاً بأيدي الروم، وقد غيروا محاسنها وسبوا أهلها، وخربوا ديارها، وهدموا مشيد بنيانها، ولم يبقوا على شيء منها[٢٤]. ●

الهوامش

(٧) راجع طبعة حديثة له أعدها شارل بلا (ليدن، ١٩٦١) باسم **Le Calendrier de Cordoue** ضمنها بالإضافة إلى الأصل العربي والترجمة اللاتينية (غير المطابقة للأصل تماماً) ترجمة افرنسية. قابل بخصوص المؤلف والكتاب مقدمة طبعة بلا وما جاء في كتاب:

L. Levi-Provençal **Histoire de l'Espagne Muslumane. Vol. III** (Paris 1953), p. 240.

(٨) راجع: نقولا زيادة **الحسبة والمحتسب في الإسلام** (بيروت، ١٩٦٣)، ص ٥٦ ــ ٥٨.

(٩) EI² Al-Andalus قابل الإدريسي ص ١٧٣.

(١٠) Al-Andalus, XVIII (1953) p. 60-61.

(١١) حسين مؤنس ص ٦٢ ــ ٦٤.

(١٢) حسين مؤنس ص ٦٥ ــ ٧٠.

(١٣) حسين مؤنس ص ٦٦ ــ ٦٧.

(١٤) حسين مؤنس ص ٦٩ ــ ٧٠.

(١٥) ابن حوقل (ليدن، ١٩٣٨) ص ١٠٥.

(١٦) EI² Al-Andalus.

(١٧) الاصطخري، **المسالك والممالك**، (القاهرة) ص ٣٥.

(١٨) ابن حوقل، ص ١٠٥.

(١٩) EI² Al-Andalus.

(٢٠) الاصطرخي، ص ٣٥ ــ ٣٦.

(٢١) ابن حوقل، ص ١٠٥ ــ ١٠٦ و ١٠٩ ــ ١١٠.

(٢٢) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص ٢٣٣ ــ ٢٣٤.

(٢٣) الشريف الإدريسي **صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس** (ليدن، ١٨٦٤) ص ١٩٧ ــ ١٩٨.

(٢٤) الإدريسي، ص ١٨٨.

● لولا حب الوطن لخرب بلد السوء.

«عمر بن الخطاب»

بلد صحبت به الطفولة والصبا ... ولبست ثوب العمر وهو جديد

فإذا تمثل في الضمير رأيته ... وعليه أغصان الشباب تميد

«ابن الرومي»

قصة أبـي نواس مـع شاعر الأندلس

● كـان عبـاس بن نـاصـح، الشاعر الأنـدلسي، لا يَقْدَم من المشـرق قـادمٌ إلا سـأله عمَّن نَجَمَ[1] هناك في الشعر، حتى أتاه رجل من التجار فأعلمه بـظهور ابـي نواس، وأنشده من شعـره قصيدتين؛ إحداهما قوله:

جَرَيْتُ مـع الصِّبا طَلْقَ الجُمُوحِ

والثانية:

اما ترى الشمس حَلَّت الحَمَلا

فقال عباس:

هذا أشعر الجن والإنس. والله لا حبسني عنه حابس.

فتجهَّز إلى المشرق. فلما حلَّ بغداد نزل منزِلة المسافرين، ثم سـأل عن منـزل أبـي نـواس، فأُرشِد إليه، فإذا بقصر على بابه الخُـدَّام. فدخـل مـع الداخلين، ووجد أبا نواس جالساً في مقعد نبيل، وحولَه أكثرُ متأدِّبـي بغداد، يجري بينهم التمثل والكلام في المعاني. فسلَّم عباس وجلس حيث انتهى به المجلس، وهو في هيئة السفر.

فلما كاد المجلس ينقضي، قال له أبو نواس: مَن الرجل؟

قال: باغي أدب.

قـال: أهلاً وسهـلاً. من اين تكون؟

قـال: من المغرب الاقصى. وانتسب له إلى قرطبة.

فقـال له: أتَـرْوِي من شعـر ابـي المخشيّ شيئاً؟

قال: نعم.

قال: فانشِدني.

فأنشده شعره في العمى. فقال أبو نواس:

هـذا الذي طَلَبَتْـه الشعـراء أَضَلَّتْه. انشِدني لأبـي الأجرب.

فأنشده. ثم قال: أنشدني لبكْر الكنانيّ.

فأنشده. ثم قال أبو نواس:

شاعر البلد اليـوم عباسُ بن ناصـح؟

قال عباس: نعم.

قال: فأنشِدني له. فأنشده:

فَأَدْتُ القَرِيض ومَنْ ذا فَأَدْ

فقال أبو نواس: أنت عباس؟

قال: نعم!

فنهض أبو نواس إليه فاعتنقه إلى نفســه، وانـحـرف له عن مجلســه. فقــال له مَن حضَــر المجلس:

من أين عرفتَه أصلحك الله؟

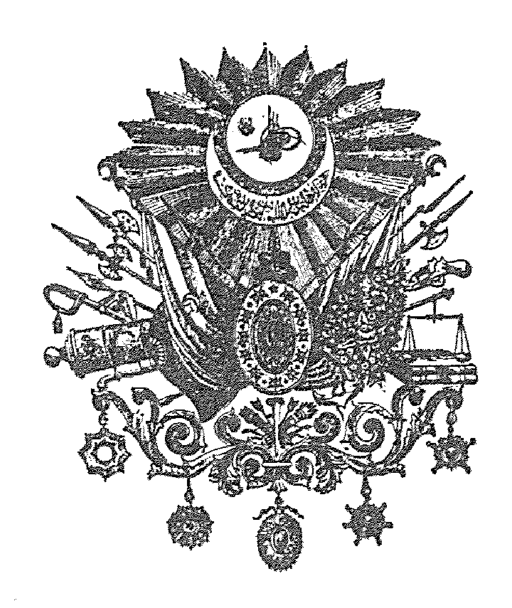
قال أبو نواس:

إني تأمَّلته عند إنشاده لغيره، فـرأيته لا يُبـالي مـا حـدث في الشـعـر مـن اسـتـحـسـان أو استقباح. فلما أنشدني لنفسه استَبَنْتُ عليه وَجْمَةً، فقلت: إنه صاحبُ الشِّعر!

من كتـاب «طبقـات النحـويـين واللغويين» للزُّبيدي الاندلسي.



(1) نَجَم: ظهر.



سور وأبواب بيروت العثمانية

د. حسان حلاق

تقع مدينة بيروت على الشاطىء الشرقي من البحر المتوسط، يحدها غرباً البحر، وجنوباً ضواحيها ومنطقة خلدة امتداداً إلى صيدا وجوارها، وشرقاً جبل لبنان، وشمالاً البحر وبعض المناطق ــ الضواحي الشمالية. وتقع بيروت في إقليم معتدل يتميز بجودة الطقس واعتدال في المناخ وجمال في المنظر. وتشير بعض المصادر التاريخية القديمة بأنه أطلق على بيروت اسم «بَيروتوس» (Béroutos) كما أطلق عليها الرومان اسم (Félix Julia). كما أطلق عليها أيضاً اسم «بِيريت»، ويقال بأن سبب هذه التسمية مشتق من اللفظ السامي «البئر»، وذلك نظراً لكثرة وجود الآبار والينابيع فيها.

ومن الأهمية بمكان القول بأن ذكر بيروت ورد في رسائل تل العمارنة وفي النقوش المصرية القديمة، كما ورد ذكرها في التوراة. كما أشار إليها: استرابون (Strabon) وبلين (Pline) وبطليموس، وكذلك ابن زرعة وابن عساكر وابن بطوطة وابن حوقل والإدريسي وناصر خسرو وصالح بن يحيى وعبد الغني النابلسي والكثير من الرحالة والمؤرخين والجغرافيين.

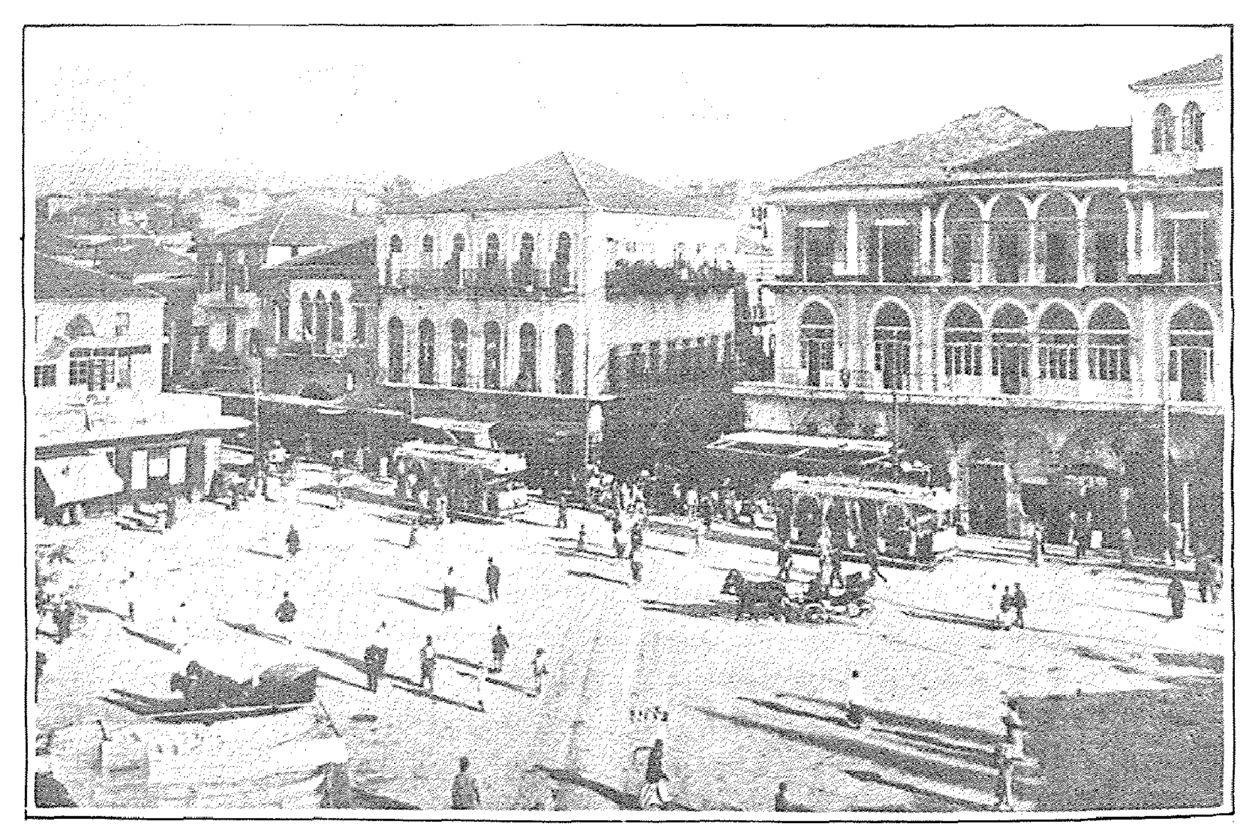


لقد وصف ابن حوقل في كتابه «صورة الأرض» بيروت، كما وصفها الحميري في كتابه «الروض المعطار في خبر الأقطار» مشيراً إلى أهميتها وإلى سورها قائلاً بأنها «في ساحل الشام... وفيها كان أبو الدرداء رضي الله عنه نازلاً... وعلى بيروت سور حجارة... وبها غيضة أشجار صنوبر تتصل إلى جبل لبنان... وشرب أهلها من الآبار...». وأشار صالح بن يحيى في كتابه «تاريخ بيروت» «بأن بيروت مدينة قديمة جداً يستدل على قدمها بعتق سورها... ومما يستدل على كبر بيروت وسعتها ما يجده الناس في الحدائق بظاهرها من الرخام وآثار العماير القديمة... فلما عمّروا السور اختصروه على القدر الذي هو عليه اليوم...».

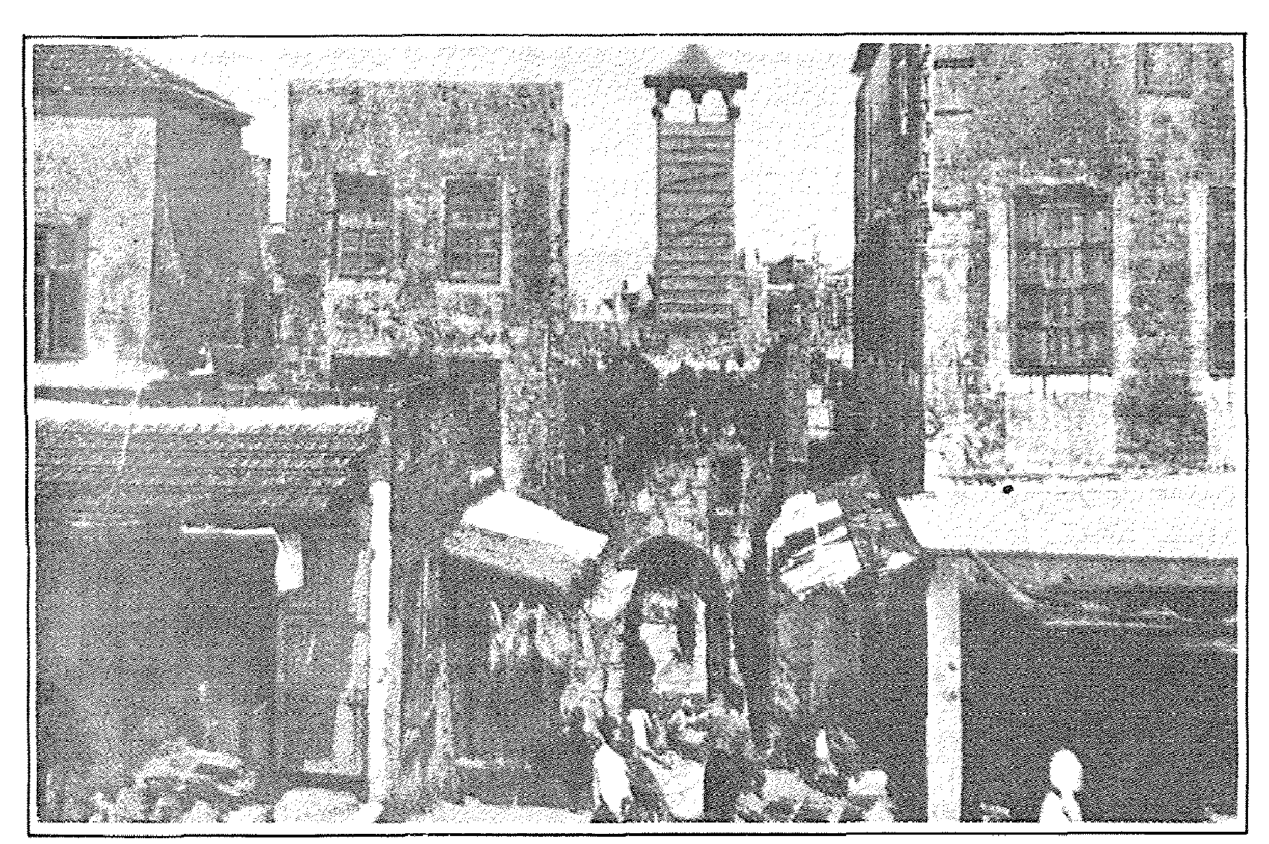
والواقع فإن تطور مدينة بيروت خارج السور، إنما جاء نتيجة متطلبات اجتماعية واقتصادية وسكانية، حيث بدأت أعداد السكان تزداد تباعاً. وكانت بيروت حتى عام ١٧٤٦ مجرد مدينة متواضعة تخضع لأحد الضباط العثمانيين. ثم سرعان ما بدأت بالتطور الاقتصادي نتيجة للأمن الذي تميزت به، ونتيجة جهود تجارها وسكانها من المسلمين والمسيحيين، مع ما يتميز به ميناؤها من مميزات تؤمن الرسو والأمان للسفن، علماً أن روح التسامح عند المسلمين شد إليها الكثير من التجار الأجانب وتجار المناطق اللبنانية والشامية لا سيما دمشق. وبدأ هؤلاء التجار يتوافدون إلى باطن المدينة إلى داخل سورها لممارسة نشاطاتهم التجارية.

لقد شهدت بيروت بعض الجمود في عهد أحمد باشا الجزار (١٧٧٦ ــ ١٨٠٤) ولكن سرعان ما استعادت نشاطها في عهد سليمان باشا (١٨٠٤ ــ ١٨١٨). وكانت بيروت العثمانية قبل توسعها الكبير يسيجها سورها الذي قام بتحديده في العصور الوسطى الأمير بيدمر نائب الشام، ثم قام بتحسينه أحمد باشا الجزار في أواخر القرن الثامن عشر.

وعندما يقال بيروت العثمانية إنما كان يقصد بها بيروت الوادعة داخل سورها، وفيما عدا ذلك من مناطق تدخل اليوم في نطاق بيروت فإنما كانت تعتبر ضواحي لبيروت في العهد العثماني. فقد



□ باب أبو النصر يظهر من ساحة البرج.

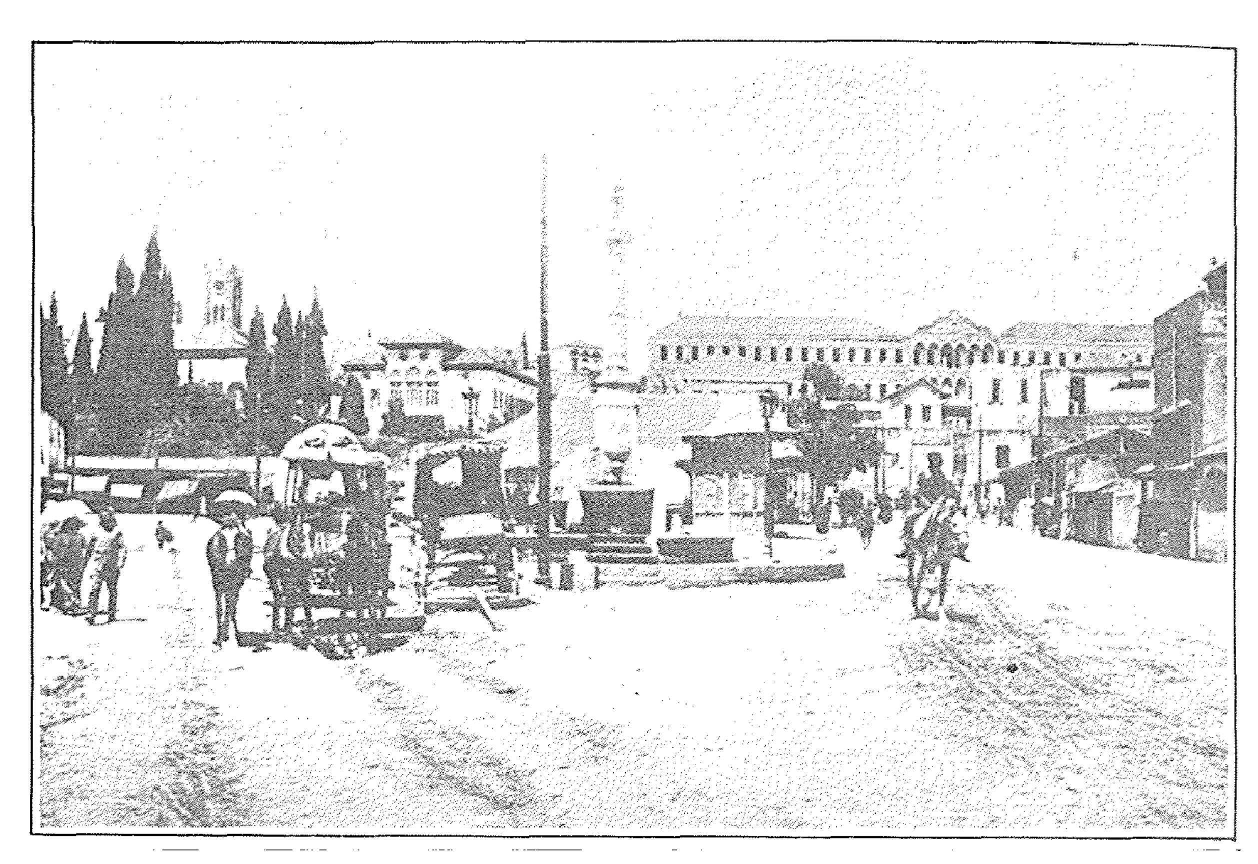


□ باب الدركة وجامع الدركة في مطلع القرن العشرين.

كانت مثلاً البسطة والمصيطبة وبرج أبي حيدر وزقاق البلاط والقنطاري والباشوراء والنويري والجميزة والصيفي والأشرفية وسواها من المناطق البيروتية، إنما كانت تعتبر ضواحي لبيروت. وكانت تتميز بكثرة بساتينها ومزارعها وأشجارها لا سيما التوت المرتبطة زراعته بإنتاج الحرير، وكذا الجميز والصبير والزعرور والزنزلخت وسواها.

وكان يتخلل سور بيروت، أو كما يلفظه «البيارتة» «الصور» بالصاد سبعة أبواب (وباب ثامن مستحدث) وبعض الأبراج العسكرية. ويبدو أن المسلمين منذ أن حكموا بيروت بدأوا يعدلون ويضيفون في أبواب السور حتى أصبحت قبل هدم السور سبعة أبواب، لارتباط هذا العدد بالمعتقدات الدينية منها «سبع سماوات طباقاً» وأبواب الجنة السبعة، والكواكب السيارة السبعة، ومعتقدات دينية قديمة مرتبطة بالتفاؤل بهذا العدد. ويرى الشيخ طه الولي في دراسة عن «أبواب بيروت» بأن عدد أبواب بيروت السبعة «إنما هو من قبيل التفاؤل بقدرة هذا العدد على حصانة هذه الأبواب وكفايتها على حماية البلد وأهله من أذى وعدوان كل شانيء يتربص به الدوائر سواء من داخل لبنان أو من خارجه».

كان سور بيروت يمتد من الجهة الشمالية للساحة (التي عرفت في ما بعد بساحة رياض الصلح) أي شمال (الهال) أو كما يقال (الهول) وشمال موقع السبيل الحميدي، وبمحاذاة حائط سينما كابيتول، ثم يسير شرقاً حتى كنيسة مار جرجس المارونية التي كانت تقع عند بنائها داخل السور. ثم يمتد السور إلى أسواق أبو النصر إلى أن يصل السور إلى بناية دعبول تجاه جامع السراي (جامع الأمير منصور عساف) حيث باب السراي. ثم ينحدر السور شمالاً إلى آخر شارع فوش الحالي عند الطرف الغربي لمرفأ بيروت. ثم يمتد السور غرباً حتى مقبرة السمطية التي كانت خارج السور على غرار بقية المقابر. ثم يرتفع السور من السمطية إلى الشارع الممتد حالياً باتجاه باب ادريس، ثم صعوداً إلى كنيسة الكبوشية التي كانت خارج السور، فمدرسة الشيخ عبد الباسط الأنسي، فسوق المنجدين (أي شارع المصارف اليوم)،



□ ساحة السور ــ السبيل الحميدي.

ويستمر السور صعودا إلى أن يلتقي مع البداية التي انطلق منها في الساحة أي ساحة السور.

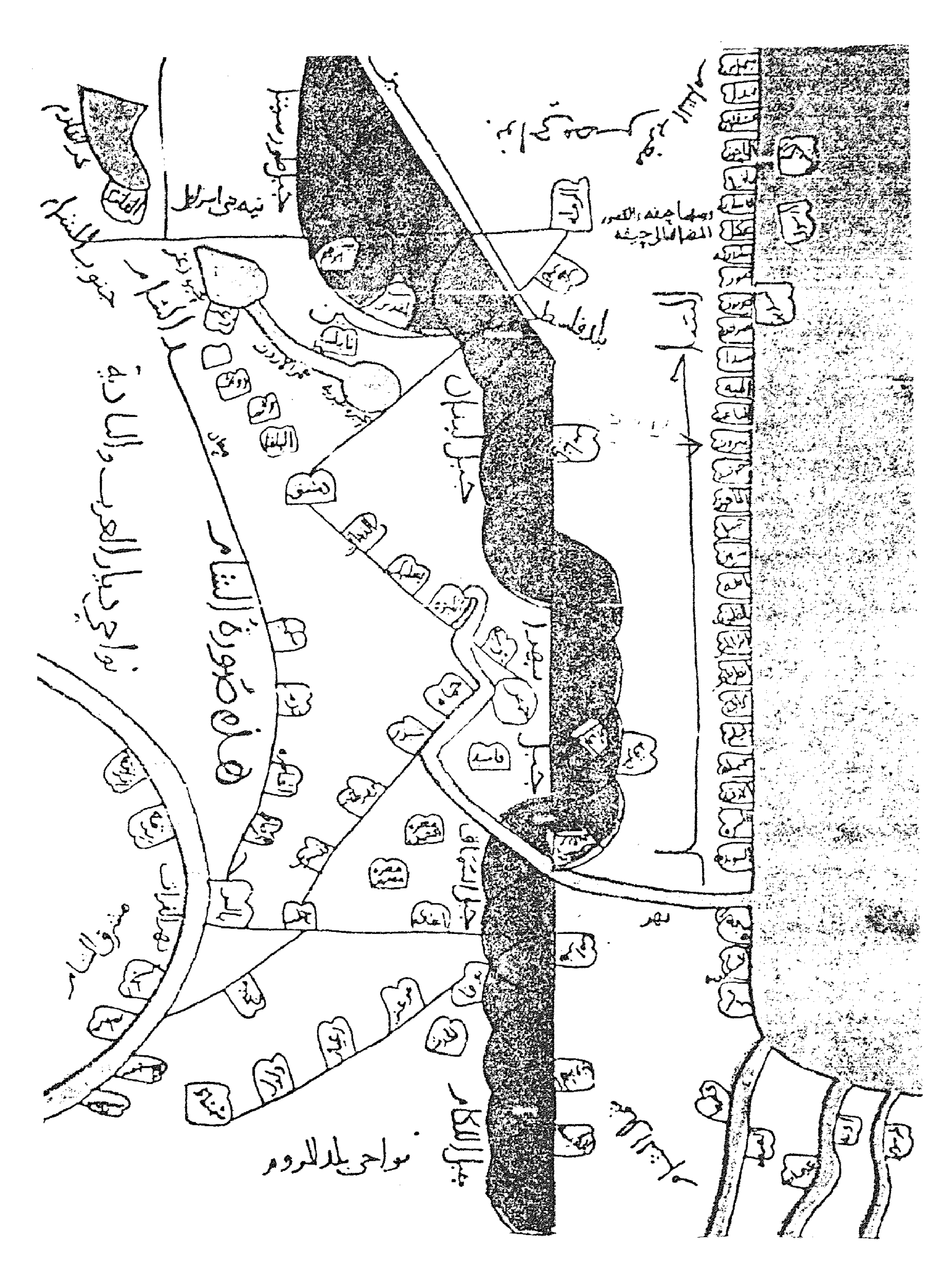
يقول الكونت «دومنيل دوبويسون» في مقال نشرته له مجلة (Syria) عام ١٩٢١ وأعادت نشره مجلة «المشرق» عام ١٩٢٢ تحت عنوان «استحكامات بيروت وتحصيناتها القديمة» العدد (٩) أيلول ١٩٢٢ ما نصه: «فكان الناظر إذا حدق البصر إلى المدينة من مشارفها في جنوبها الغربي أو من رأس السنطية يراها محدقة بنطاق من الأسوار القديمة على شكل مربع مستطيل يمتد من الشمال إلى الجنوب... وهذا ما كانوا يدعونه ببيروت المربعة... وكان قياس تلك المدينة من أرصفة مرفإها القديم إلى باب الدركة الجنوبي يبلغ (٥٧٠) متراً فقط. أما قياس امتدادها من بابها الشرقي أي باب السراي إلى بابها الغربي باب ادريس فما كان يـزيد عن (٣٧٠) متراً. وكان الغالب عليها أسواقها التي في النهار كانت تموج في وسطها وعند أبوابها بحركة البائعين والتجار، ثم تعود إلى هدوئها ليلاً بعد أن تقفل أبوابها وتودع مفاتيحها عند واليها».

ويتحدث الشيخ عبد القادر قباني عن ذكرياته في بيروت العثمانية قبل زوال سورها وأبوابها ويقول: «... لقد أدركت هذه الأبواب تُغلق بعد الغروب بساعتين وتفتح صباحاً... وكان بالأبراج بجوار الأبواب جند للمحافظة، وكان لهم وللمدفعية في القلعة والطوابي شأن مع سفن اليونان الذين غزوها مع الفجر وارتدوا أدراجهم غير موفقين بعد معركة سنة ١٢٤٠هـ».

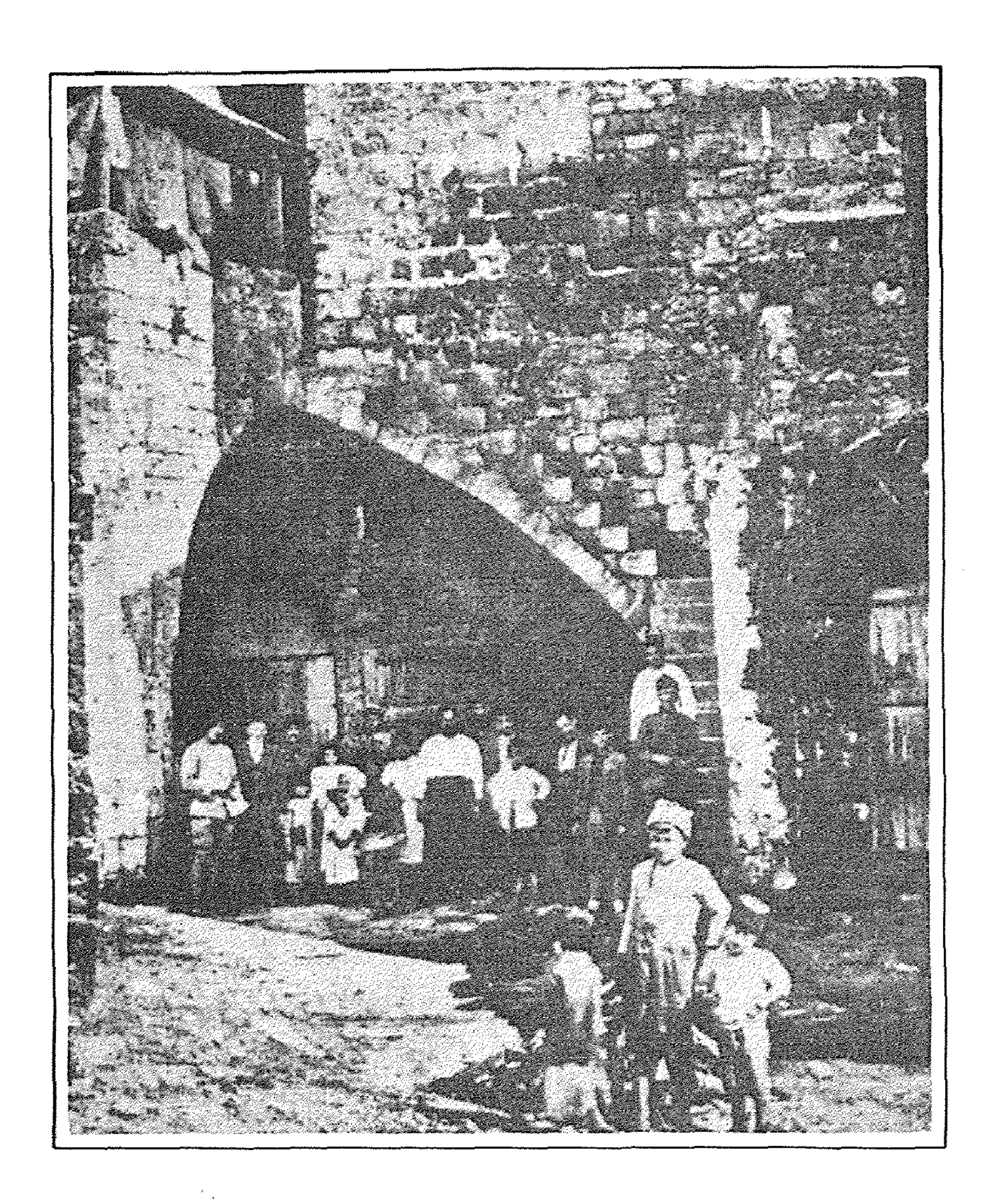
وفي العهد المصري صدرت إرادة القائد المصري إبراهيم باشا بن محمد علي باشا بإقفال أبواب بيروت حفاظاً على سكانها وأمنها، وقد أعلم إبراهيم باشا القناصل الأجانب بهذه الخطوة، ومنها رسالته إلى القنصل الانكليزي في بيروت أعلمه فيها مبررات اتخاذ هذا القرار وفي ما يلي نص الرسالة:

«الجناب الأكرم، حضرة المحب الأجل المحترم قنسلوس بك دولة الإنكليز المحتشم حفظه الله تعالى.

ليس خافٍ محبتكم الحال الواقع من ظهور خروج بعض أشقياء من رعايا جبل لبنان كما هو المسموع والمحسوس بالقرب من هذه الناحية، ومن جراء ذلك



□ صورة الشام وبيروت كما وردت عند ابن حوقل.



□ باب السراي، أحد
أبواب بيروت العثمانية

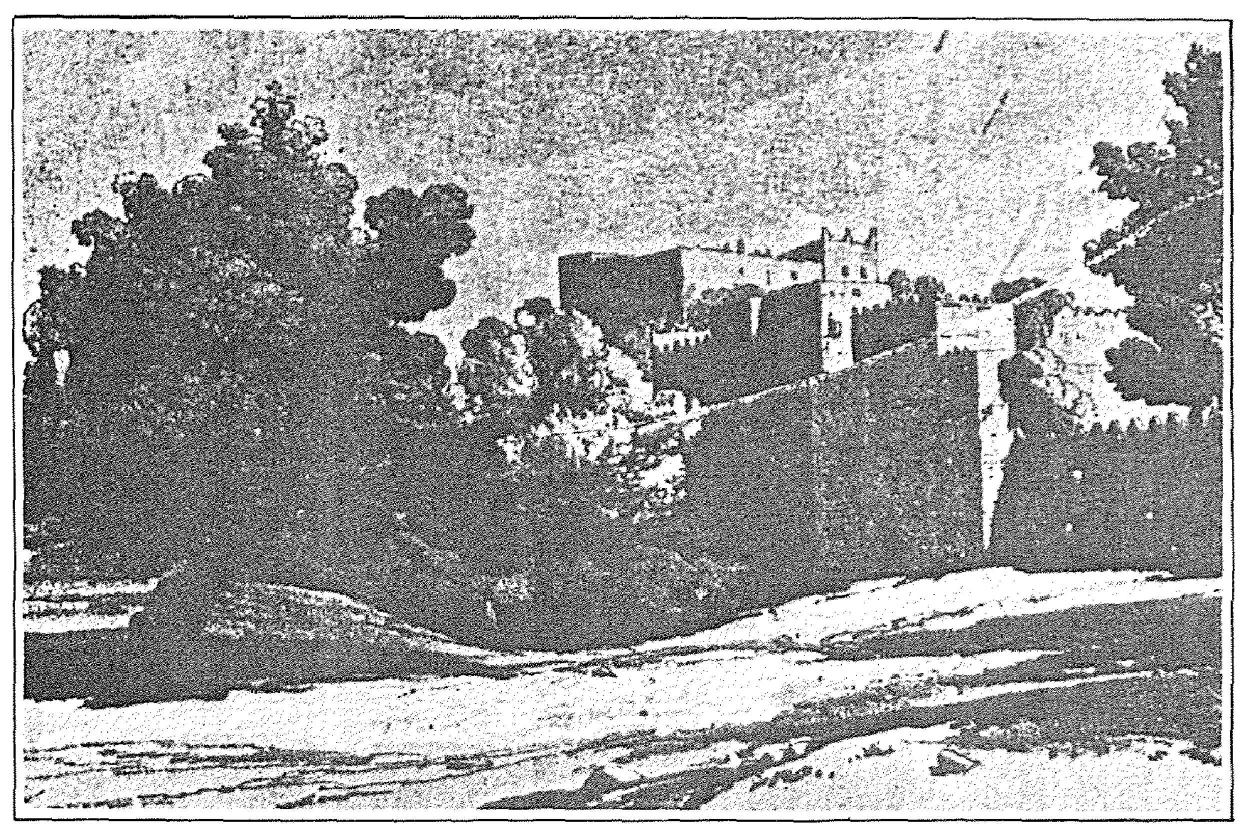
رعايا بيروت من إسلام وذميين سكنا البرية، متحسبين وعمال ينزلوا عفشهم إلى البلدة، والبعض نزلوا من محلاتهم إلى البلدة، فبحيث الحالة هذه وللمحافظة المأمورين بها، واحتراساً لأمر ما، اقتضى التنبيه بأن كافة البوابات تقفل أذان المغرب وبالاذن يصير فتح بوابة السراي إلى حد العشاء فقط، وبعد أذان العشاء المتقدم شرحه، ما في رخصة لفتح البوابة كلياً، بل الذي يكون داخل البلدة يفضل بها كما والذي خارج البلدة أيضاً، وحيث ذلك عايد لراحة الضمير ولأجل المحافظة المأمورين بها اقتضى إفادة محبتكم بذلك وانه تعالى يحفظكم».

الختم
محمود نامي
مير محمود
محافظ بيروت

وتدل هذه الرسالة على الكثير من الأمور، منها أن أبواب بيروت كانت لا تزال عاملة في أيام الحكم المصري ١٨٣١ ــ ١٨٤٠، وأنها كانت تقفل عند المغرب، باستثناء باب السراي وهو الباب الرئيسي الذي كان يقفل عند العشاء، وذلك لصباح اليوم التالي حفاظاً على الأمن والاستقرار في البلدة.

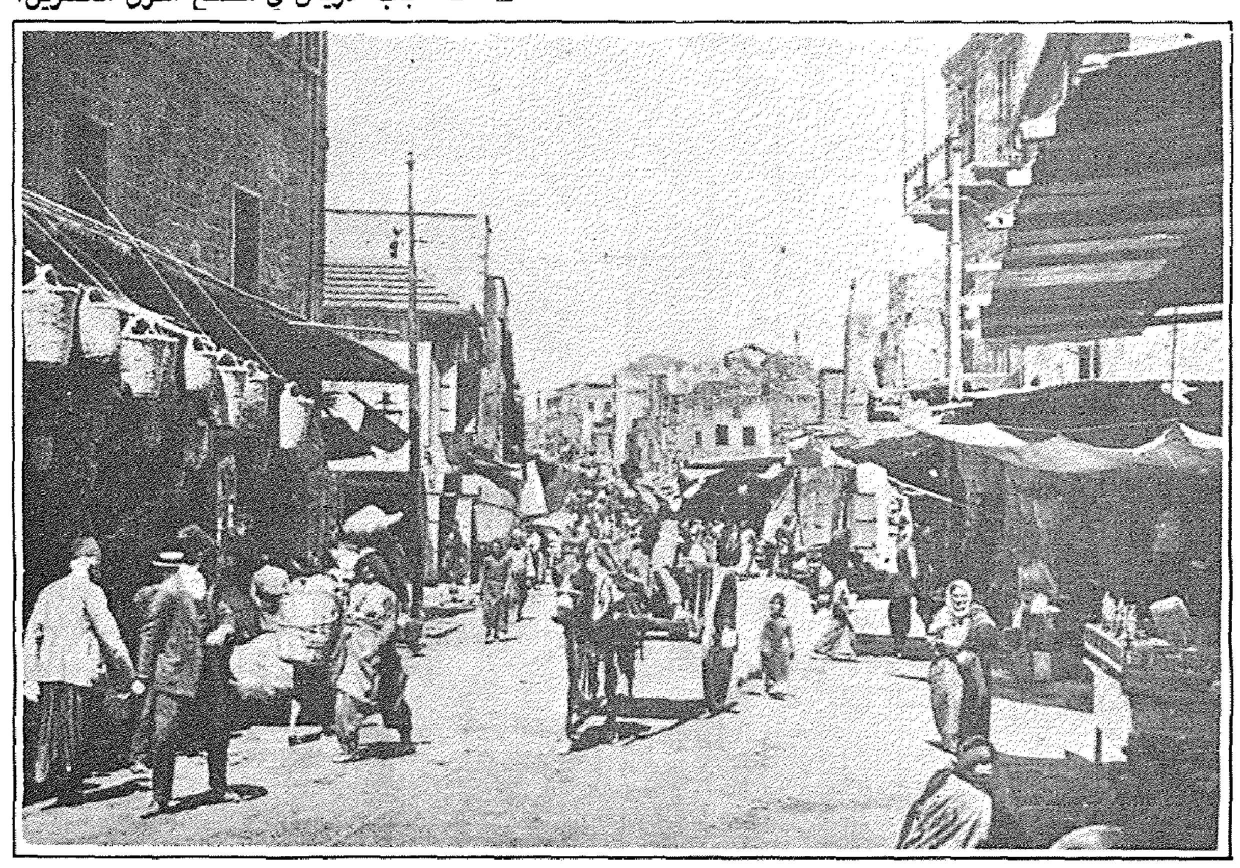
أما أبواب بيروت فهي: بوابة يعقوب، باب الدركاه (الدركه)، باب أبو النصر، باب السراي، باب الدباغة، باب السلسلة، باب السمطية، باب ادريس.

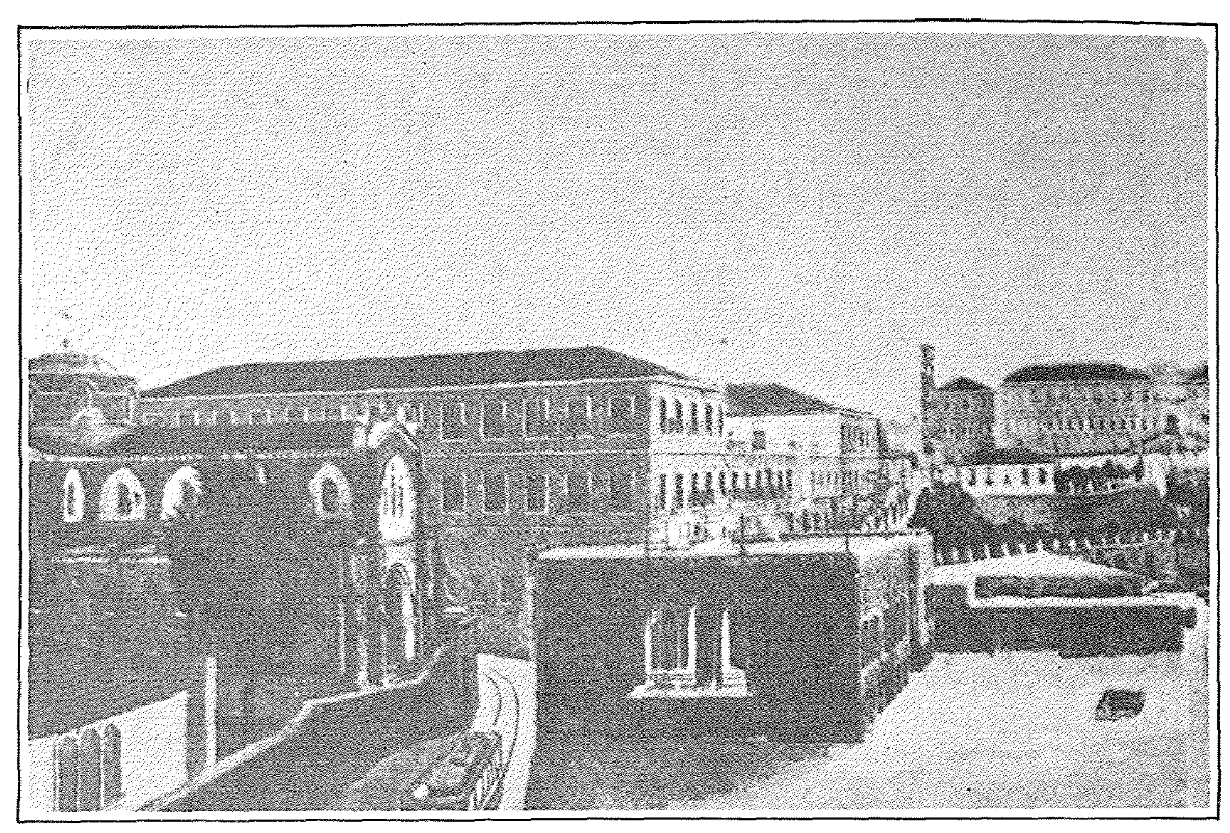
أما ملامح ومواقع هذه الأبواب فهي بالتسلسل على النحو التالي:



□ بيروت العثمانية مسيجة بالسور وتلف بها أشجار التوت.

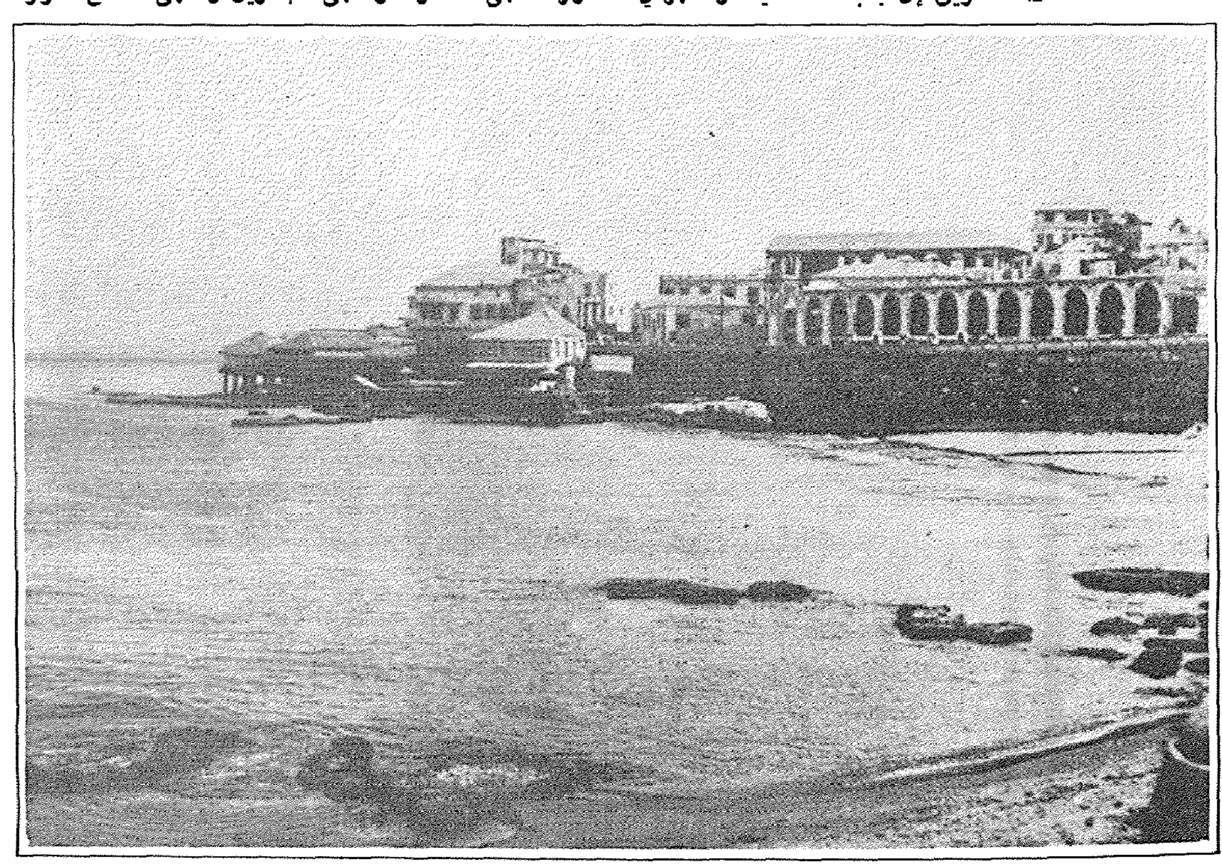
□ محلة باب ادريس في مطلع القرن العشرين.

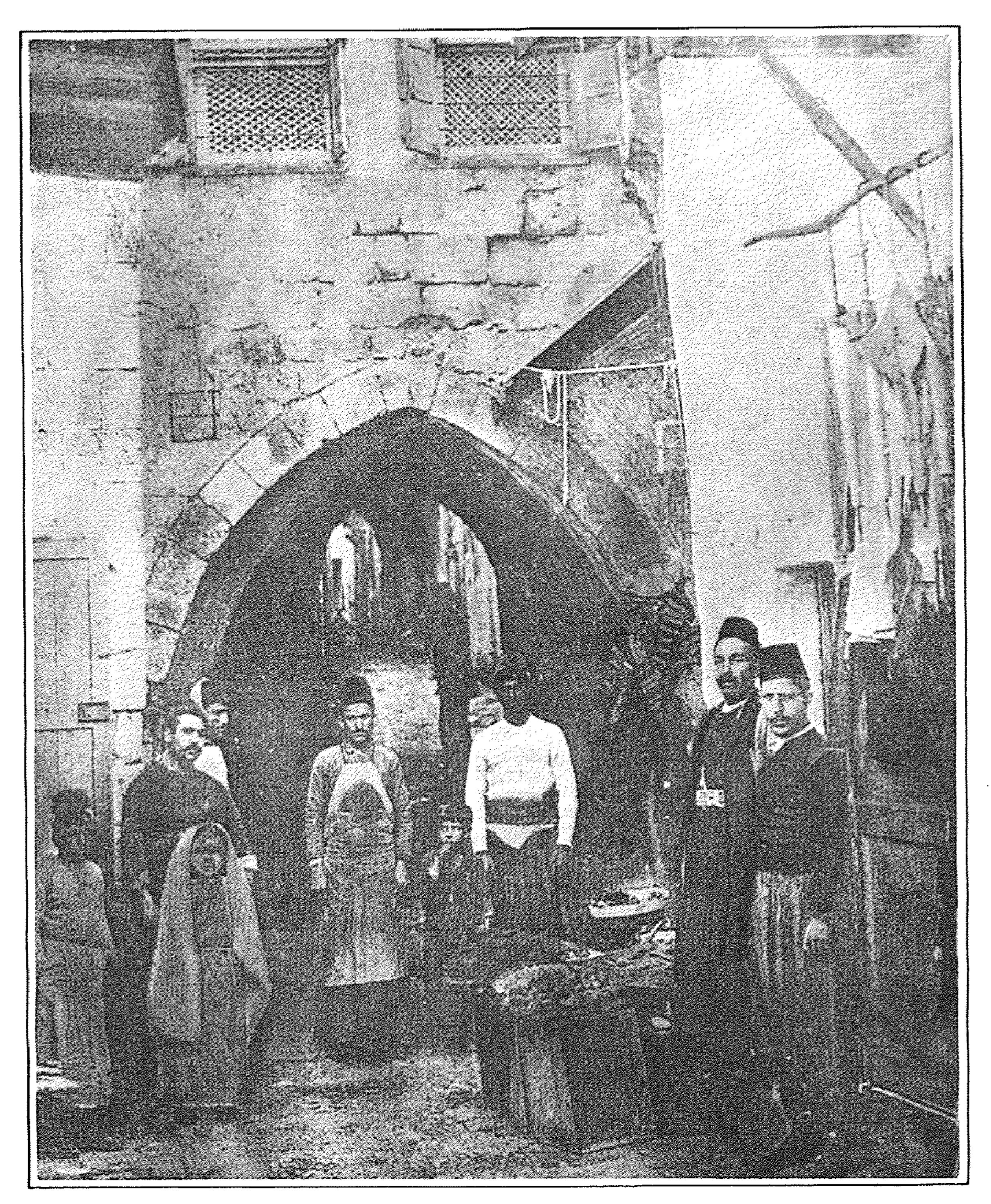




□ الثكنة العسكرية والمستشفى العسكري وكنيسة الكبوشية في نهاية العهد التركي.

□ الطريق إلى باب السمطية، وتظهر في الصورة مقهى الحمراء ومقهى البحرين ومقهى الحاج داوود.





□ جمهرة من البيارتة أمام باب (بوابة) يعقوب، احد أبواب سور بيروت القديمة.

١ ـ **بوابة يعقوب**: أو باب يعقوب، ويقع هذا الباب في الجهة الجنوبية لبيروت القديمة على الطرف الشمالي لطلعة الأميركان شرقي سراي الحكومة (التي انتقلت مكاتبها منذ سنوات قليلة إلى الصنائع). وكان باب يعقوب يؤدي إلى ساحة السور التي عرفت في ما بعد باسم ساحة السبيل الحميدي ومن ثم ساحة رياض الصلح. وهناك رأي يشير إلى أن أحمد باشا الجزار هو الذي أقام هذا الباب في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. كما ينسب هذا الباب إلى أحد القاطنين بقربه وهو إما يعقوب الكسرواني أو الطبيب يعقوب أبيلا قنصل انكلترا في صيدا المتوفى عام

١٨١٣. وكان يقع بالطرف الشمالي من باب يعقوب جامع بوابة يعقوب أو جامع شيخ السربة. وكان يوجد أمامه السوق المعروف باسم بوابة يعقوب، كما كان بمحاذاته زاوية الشيخ حسن الراعي، وحديقة خلف دكاكين البوابة، ومن ملامح بيروت العثمانية المهمة الواقعة قرب بوابة يعقوب المحلة المعروفة بالتكنات و «الخسته خانه» أي المستشفى الحكومي العثماني (وهي المحلة التي أصبحت في عهد الانتداب الفرنسي وعهد الاستقلال سراي الحكومة ومقر العدلية).

٢ ــ **باب الدركه**: وموقع هذا الباب قريب من أول شارع المعرض من جهة القبلة (الجنوب)، وكان يوجد بمحاذاته زاوية ومسجد الدركه. والدركاه لفظ فارسي يعني باب القصر أو الفندق. ومن جهة أخرى فإن باب الدركه كان يطل على درج رجال الأربعين الشهير في بيروت، كما وجد بالقرب من باب الدركه حمام الدركه ومنطقة مياه الدركه. ومن ملامح الباب حتى أواخر القرن التاسع عشر عبارة مثبتة على لوحة قديمة لباب الدركه معناها «أيها الداخل بهذا الباب إفتكر بالرحمة». وتشير المصادر التاريخية بأن القائد المصري إبراهيم باشا دخل بيروت عام ١٨٣١ من هذا الباب، وشق طريقه إلى السراي في موكب ضخم تظلله أقواس النصر ومعالم الزين والقباب.

ويذكر بأن باب الدركه من أجمل أبواب بيروت العثمانية، لما كان عليه من نقوش ومتانة وإتقان، وفيه من الملامح العسكرية ما يلفت النظر، حيث الكوات (الكوى) المعدة لرمي النار، ويوجد فيه مكان مخصص للحرس لضرب العدو من أعلى.

٣ ــ **باب أبو النصر**: وكان موقعه قريباً من سوق الخضار واللحوم والأسماك، وقريباً من سوق الجوهرجية، ويطل أيضاً على ساحة البرج. سمي بهذا الاسم نسبة إلى الشيخ أبي الوفاء عمر أبي النصر اليافي والد نقيب الأشراف الشيخ عبد الكريم أبو النصر اليافي. غير أن هذا الباب لا يعتبر من أبواب بيروت القديمة، وإنما من مستحدثات القرن التاسع عشر.

ويشير الكونت دومنيل دوبويسون إلى هذا الباب بقوله: «... هناك زقاق ومعبر مقبب يتجه إلى الجنوب الغربي نحو كنيسة مار جرجس الكاتدرائية (المارونية) فإنها كانت داخلة ضمن السور وآخر دار تراها في هذا المعبر عن شمالك قبل دخولك تحت البناء المقبب، هي دار الأمير عبد القادر (الجزائري) سكنها عندما مر ببيروت... ويدعى ذلك المعبر المقبب الذي بقرب هذه الدار «باب أبو النصر» ينفذ منه الإنسان إلى «سوق أبو النصر». ومنْ دقق النظر في هذا الباب لا يسعه أن يسلم بكونه من أبواب المدينة رغماً عما يُرى على جداره الخارجي من آثار التحصين...».

٤ ــ **باب السراي**: ويعرف هذا الباب أيضاً باسم باب المصلى، وهو أحد أبواب بيروت الشهيرة والمميزة والرئيسية. وكان موقعه قرب جامع الأمير منصور عساف وتحديداً مكان حديقة البلدية الصغرى تجاه نظارات المجذوب. وكان يحد باب السراي من الغرب سراي الأمير فخر الدين القديمة التي تهدمت عام ١٨٨٢. وقد شيد مكانها ومكان حديقتها «سوق سرسق وتويني وشركاهما». ومن الشرق الطريق المؤدية إلى محلة المدور، ومن الجنوب خان الوحوش وسهلات البرج حيث تقع ساحة الشهداء أو البرج وسينما أوبرا حيث كانت اسطبلات الأمير فخر الدين المعني. ومن الشمال خان سعيد آغا وبعض الأبنية المجاورة للخان شرقاً. وكما أشرنا سابقاً فإن باب السراي يستمر مفتوحاً إلى حين صلاة العشاء، في حين تقفل جميع أبواب بيروت عند صلاة المغرب لقد بقي باب السراي قائماً بحالة جيدة إلى أن تم هدمه عام ١٩٢٧ عندما بدأ الانتداب الفرنسي بتخطيط الشوارع في بيروت العثمانية وهدم المعالم العثمانية والحيلولة دون ربط حاضرنا بماضينا.

٥ ــ **باب الدباغة**: يقع هذا الباب في طرف سور بيروت العثمانية في الجهة الشرقية لميناء بيروت المحروسة. سمي هذا الباب بهذا الاسم لوجود دباغة بقربه لدبغ الجلود، كما سمي الجامع المحاذي له جامع الدباغة (جامع الصدّيق في ما بعد). وكان يوجد أمامه دار على جانب البحر للأمير ناصر الدين التنوخي المتوفى ١٣٥٠م. وكان يتفرع من باب الدباغة طريق فرعية تطل على سوق القطن. ويعتبر هذا الباب من أكثر أبواب المدينة ازدحاماً بالتجار لقربه من

الميناء. وتشير سجلات المحكمة الشرعية في بيروت إلى أنه كان يوجد أمام باب الدباغة المركز الخاص بتحصيل المكوس والضرائب المقررة على البضائع الصادرة والواردة.

دومنيل دوبويسون يصف هذا الباب بقوله: «وباب الدباغة قد فتح في نفس البدَنة عرضه نحو مترين و٦٠ سنتم كان يعلوه قوس محدب من حجر وبقرب القوس المذكور من باطنه خشبة ضخمة تعترضه لها في طرفيها ثقبان لجاروري الباب الأعليين، وعلى هذا المثال بقية الأبواب كباب السراية وباب يعقوب وباب قلعة المعز في صيدا. وقد أقيم فوق الباب لحراسته بناية مستندة إلى ثلاث دعائم كان الجنود يرمون بها القذائف على العدو. وكان باب السراية مجهزاً بمثلها...».

٦ ـ **باب السلسلة**: وهو من أبواب بيروت القديمة، إذ يعود تاريخه إلى أيام نائب الشام الأمير بيدمر الخوارزمي المملوكي، وقد أشار إلى ذلك صالح بن يحيى في كتابه «تاريخ بيروت».

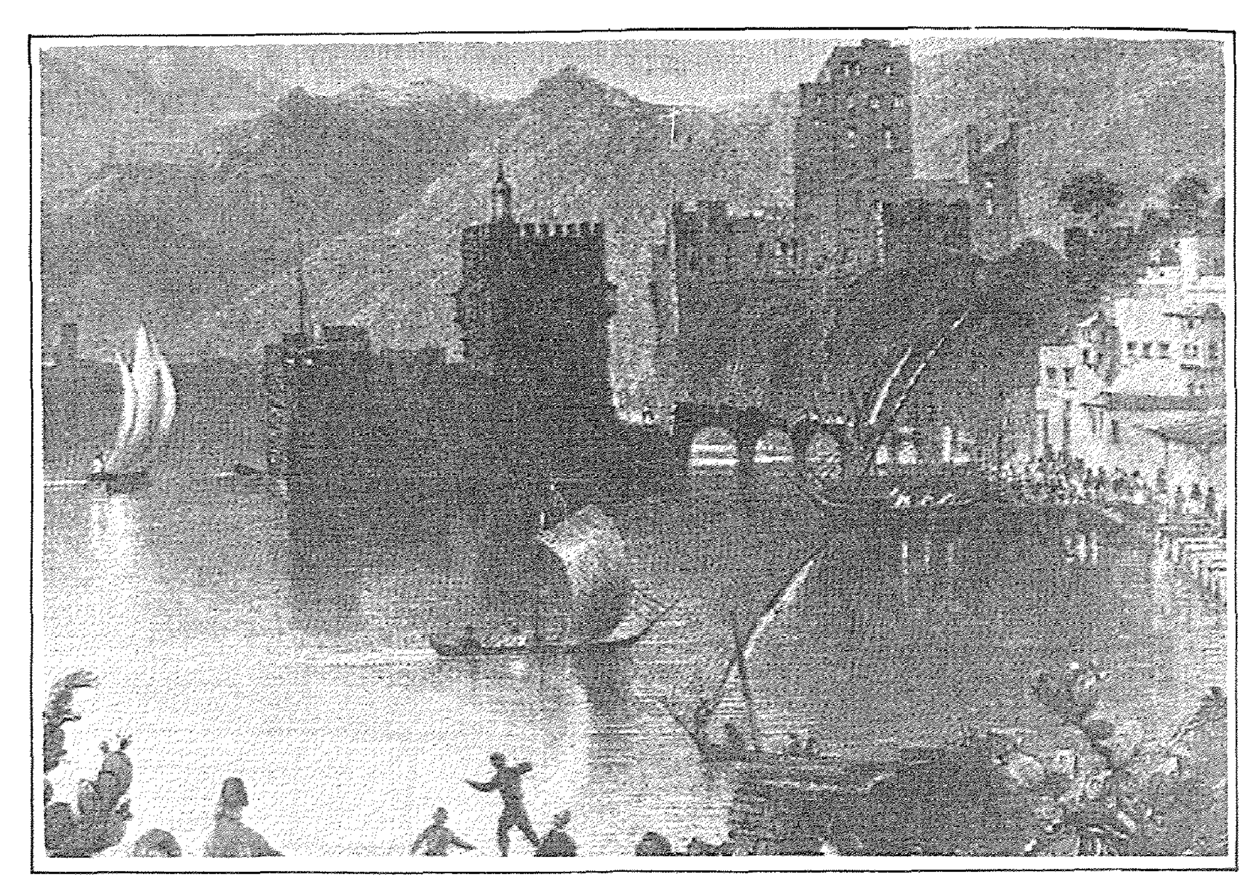
موقع هذا الباب قرب مرفأ بيروت المحروسة شمالاً، وقد سمي بهذا الاسم لوجود سلسلة في المرفأ تؤمن الرسو للسفن بأمان، وتمنع المراكب الصغيرة من الدخول أو الخروج، وتؤمن هذه السلسلة بواسطة الحراس المراقبة على سير حركة المرفأ. ووجد بالقرب من الباب أحد أبراج مدينة بيروت العاملة، وقد عرف هذا البرج باسم «برج السلسلة». وكان باب السلسلة بين برجين: برج الفنار وبرج السلسلة. وقد جاء ذكر باب السلسلة في كتاب صالح بن يحيى حيث قال: «لما جدد الأمير بيدمر نائب الشام سور بيروت على جانب البحر، جعل أوله من عند الحارة التي لنا على البحر واصلاً تحت البرج الصغير العتيق المعروف ببرج البعلبكية، وجعل بين هذا السور وبين البرج المذكور باباً وركب عليه سلسلة تمنع المراكب الصغار من الدخول والخروج فسمي «باب السلسلة». هذا وقد هدم هذا الباب اثر عاصفة هوجاء ضربت مرفأ بيروت عام ١٨٤٩.

٧ ـ **باب السمطية**: يقع هذا الباب من الجهة الشمالية لسور بيروت المحروسة إزاء البحر. وقد وجد بالقرب منه ولكن خارج السور مقبرة السمطية الشهيرة بالقرب من مقهى الحاج داود الذي هدم منذ سنوات قليلة، في الطريق المؤدية إلى مرفأ بيروت. وقد سمي هذا الباب بالسمطية نسبة إلى السماط وهو جانب الطريق أو رصيفه، حيث كان الباعة والتجار يعرضون بضائعهم على جانبي السماط للبيع والشراء، حيث يتكاثر التجار في الطريق من وإلى المرفأ.

ويذكر الكونت دومنيل دوبويسون في مقالته «استحكامات بيروت وتحصيناتها القديمة» ما نصه: «كان السور يمتد من باب ادريس إلى شارع سوق الجميل حيث كان باب المدينة الأخير المدعو باب السنطية قريباً من البحر، وأمامه مقبرة السنطية التي تُرى آثارها شمال شارع الفرنسويين. وفي خوارط الإنكليز في أواسط القرن التاسع عشر ترى بإزاء الباب من داخل المدينة حقلاً من أشجار التوت كان يمتد على طول السور من البحر إلى باب ادريس. وكان السور يمتد من باب السنطية تواً إلى صخرة الساحل، وهناك كان ينعطف على خط مستقيم نحو الشرق ويبلغ إلى الرصيف الذي كان يقفل المرفأ في القرون الوسطى. وللمصور «مونفور» صورة حسنة تدل على ذلك...».

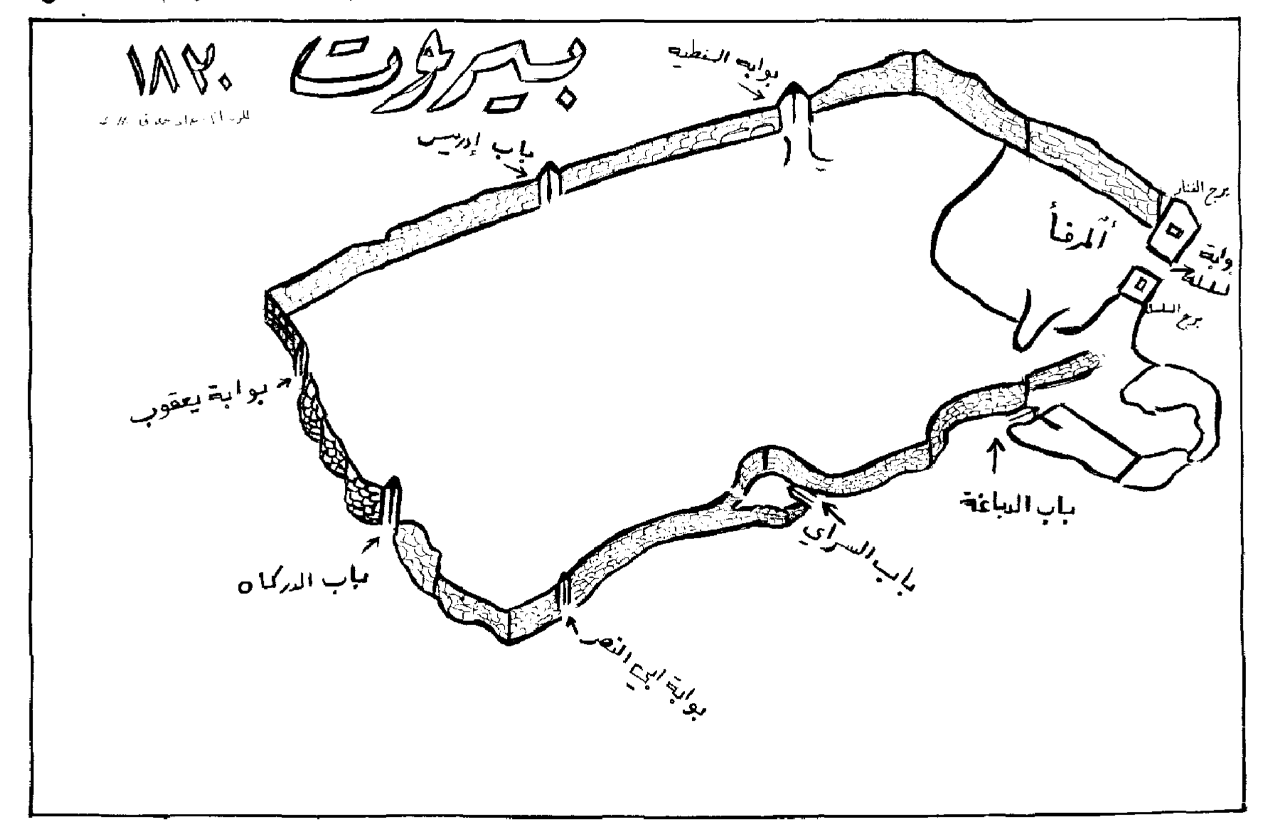
٨ ـ **باب ادريس**: وهو من أبواب بيروت العثمانية المعروفة يطل على الجهة الغربية الشمالية للسور، وكان موقعه قريباً من الكنيسة الكبوشية، وتحديداً تجاه محلات رد شو (Red Shoe) وجوزف عيد في محلة باب ادريس. كما أن للباب مدخلاً يطل على خط الترامواي المستحدث في أوائل القرن العشرين قريبا من سوق أياس. وقد سمي باب ادريس بهذا الأسم نسبة لعائلة ادريس المتوطنة في تلك المنطقة.

ويشير «دو بويسون» إلى «أن مفرق شارعي البوسطة (البريد) وجورج بيكو يدعى باب ادريس، ويشير إلى أحد أبواب المدينة الذي كان مشيداً على امتداد حائط الآباء الكبوشيين. أطلق عليه هذا الأسم لأن إحدى العيال (العائلات) المدعوة بإدريس كانت تسكن فوقه. ولما قدم الفرنسويون إلى سورية سنة ١٨٦٠ وأنشأوا طريق الشام أرادوا أن يهدموا ذلك الباب وقسماً من السور ليبلغوا الطريق إلى البحر، إلا أن أبا صالح ادريس صاحب الدار لم يشأ أن



□ مرفأ بيروت حيث يظهر باب السلسلة. (بارتلت ــ ١٨٣٤).

□ بيروت وأبوابها عام ١٨٣٠. رسم عماد حلاق



يتخلى عن ملكه قطعياً فقال له حينئذ والي بيروت كلاماً أصبح اليوم شبيهاً بالنبوة: «إنك ستذكرني يوماً بالخير وتتمنى لنفسي الرحمة إذا ما رأيت ما سيحصل من المنافع بفتح هذه الطريق».

وعلى ذلك فقد قامت الشركة الفرنسية التي عهد إليها توسيع أسواق المدينة، وشق طريق بيروت ـ دمشق بهدم باب ادريس عام ١٨٦٠.

إن أبواب بيروت المحروسة اندثرت برمتها، ولم يبق منها سوى اسمها. ولا بد من الإشارة إلى أنه كان لهذه الأبواب أنظمة تحكمها، وقد كان على كل باب عين من أعيان المنطقة كان المسؤول عن وضع وأمن وحراسة هذا الباب أو ذاك. وكان مكلفاً بالإنفاق على مصباح معلق إلى جانب الباب الخارجي ينيره عند المغيب بعد أن يقفل الباب بمفتاح خاص كبير، يودعه عند متسلم بيروت حتى الصباح، وهكذا كل صباح ومساء. وكان حفاظ الأبواب من العائلات البيروتية المعروفة. أما القوافل التي يصادف وصولها ليلاً إلى بيروت فتضطر إلى المبيت في ظاهر بيروت وخارجها في مناطق مثل: الغلغول، البسطة، المصيطبة، الصيفي، زقاق البلاط، الباشوراء، الجميزة، وسواها إلى أن تفتح أبواب سور بيروت صباحاً فتدخل القوافل والتجار والباعة لممارسة نشاطهم وتبضع حاجياتهم أو بيع محصولاتهم. ●

مصادر البحث

الوثائق:

ـ سجلات المحكمة الشرعية في بيروت (وثائق متفرقة).

المصادر والمراجع:

١ ـ د. أسد رستم: آراء وأبحاث، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٦٧.
٢ ـ بيروت ١٨٧٥ ـ ١٩٧٥، خرائط وصور، جامعة بيروت العربية ١٩٧٧.
٣ ـ د. حسان حلاق: أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني ـ سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ـ الطبعة الثانية، الدار الجامعية، بيروت ١٩٨٨.
٤ ـ حسان حلاق: التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية ـ سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ـ الدار الجامعية، بيروت ١٩٨٧.
٥ ـ حسان حلاق: بيروت المحروسة في العهد العثماني، الدار الجامعية، بيروت ١٩٨٧.
٦ ـ الكونت دومنيل دو بويسون: استحكامات بيروت وتحصيناتها القديمة، المشرق، ج ٢٠، العدد (٩)، ايلول (سبتمبر) ١٩٢٢.
٧ ـ شفيق طبارة: بيروت، سورها وأبوابها، أوراق لبنانية، م ١، ج ١١، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٥.
٨ ـ شفيق طبارة: معالم بيروت القديمة، أوراق لبنانية، م ٣، ج ١، كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧.
٩ ـ صالح بن يحيى: تاريخ بيروت (أخبار السلف من ذرية بحتر بن علي أمير الغرب ببيروت)، تحقيق: فرنسيس هورس اليسوعي، كمال سليمان الصليبي، دار المشرق، بيروت ١٩٦٧.
١٠ ـ الشيخ طه الولي: أبواب بيروت، مجلة المقاصد، العدد (٢١)، كانون الثاني ١٩٨٤ / ربيع الثاني ١٤٠٤هـ.
١١ ـ الشيخ عبد الباسط الانسي: دليل بيروت، تقويم الإقبال لسنة ١٣٢٧هـ (١٣٢٤ ـ ١٣٢٥ شرقي ـ ١٩٠٩ ـ ١٩١٠ غربي)، مطبعة الإقبال ـ بيروت ١٣٢٧هـ.
١٢ ـ Debbas. Fouad: Beyrouth. Notre Mémoires. Beyrouth 1986 (Naufal Group).

الدوريات:

١ ـ أوراق لبنانية (بيروت) ١٩٥٥.
٢ ـ أوراق لبنانية (بيروت) ١٩٥٧.
٣ ـ المشرق (بيروت) ١٩٢٢.
٤ ـ المقاصد (بيروت) ١٩٨٤.



□ عثمان، مؤسس السلطنة العثمانية (١٣٠٠ ــ ١٣٢٦).

البلقنة: مشاكلها وحلولها

د. لطفي المعوشي(*)

كثيراً ما تتردد كلمة البلقنة (Balkanisation) بشكل يومي ودائم، خاصة إذا كان الحديث يتناول قضايا ومسائل ذات طابـع إقليمي وقومي متشابكة فيما بينها، لتتعقد وتأخذ طابعاً دولياً. فهي مصطلـح حديث بالنسبة لنا نتناوله في أدبياتنا للمقارنة بوضـع مماثل للوضـع الذي نقصده باستعمال هذه اللفظة.

وكلمة البلقنة: مأخوذة من بلقان: Balkan في التركية والسلافية وحتى في الفرنسية وتعني الجبل. وأصل التسمية هي من قبيل تسمية الشيء بإحدى خصائصه أو صفاته ــ الطبيعة الجبلية التي تمتاز بها شبه جزيرة البلقان.

أما حقيقة هذه اللفظة وجوهرها وما تؤدي إليه، فتعكس المسائل والمشاكل ذات الطابـع المعقد والمتشابك. فتاريـخ الشعوب البلقانية يؤكد بشكل لا يحمل الشك أنه في أساس جميـع «الأزمات الشرقية»، والتناقضات والمعارك والصراعات التي شهدتها منطقة شبه جزيرة البلقان ــ منذ عصر النهضة فصاعداً ــ كانت تكمن المسألة القومية. هذه المسألة حركت العديد من نشاطات الأبطال والقادة الشعبيين، وعلى أساسهـا أعلنت الأحزاب السياسية وحركات التحرر الوطني برامجها وحددت الحكومات والدول سياستها، وكونت المحتوى الأساسي للعلاقات بين الدول البلقانية نفسها. إن هذا كله وجد له امتداداً عميقاً وجذوراً تاريخية قديمة[1].

(*) أستاذ في الجامعة اللبنانية.



فـالنظام الاجتمـاعي ـ الاقتصـادي والسياسي ـ الاقطاعي العثماني، الذي استمر قروناً عدة في منطقة شبه جزيرة البلقان، وجه ضربة قوية للتقاليد القومية لدى الشعوب البلقانية. فقد زالت من الوجود الدول البلقانية التي كانت معروفة في القرون الوسطى مثل بـيزنطية، بلغاريا وصربـيا. ودخلت أراضي هذه الدول في عداد الامبـراطورية العثمـانية. فبرزت هذه الامبراطورية كدولة مركزية إقطاعية عسكـرية قـوية ذات مسـاحـات كبيـرة تضم آسيا الصغرى الشرق العربـي، أفريقيا الشمالية، الحوض الشرقي للبحر الأبـيض المتوسط، شبه جزيرة البلقان، وجزءاً كبـيراً من وسط وشرقي أوروبا. وامتدت الممتلكات العثمانية خلال القرنين السادس عشر والسابـع عشر غرباً حتى بولونيا، النمسـا، البندقيـة وجنوى. واجتـازت جيوش السلطنـة الأراضي الهنغـاريـة، السلوفـاكيـة والخرفاتية بدون أية مصاعب تستحق الذكر(٢)، بالرغم من الانتصارات العظيمة التي حققتها الامبراطورية العثمانية، فإن الجيوش السلطانية لم تنجـح في بسط سيطرتها على منطقة شبه جزيرة البلقان دفعة واحـدة. فقد تمكنت من إزاحة الطبقة الاقطاعية المحليـة الحاكمـة، في الجزءين الشرقي والأوسط من شبه الجزيرة، كلياً وإقامة نظام دستوري يعتمد على الشريعة الإسلامية التي يعمـل بها في كـافة الأجهـزة الحكومية، بحيث يخضـع جميـع أعضاء هذه الأجهزة لإرادة واحدة مطلقة ـ هي السلطان ـ وخير معبر عن ذلك هو ظهور السلطة المركزية القـوية التي أمّنت سيـادة الطبقة الاقـطاعية العثمـانية فـوق أراضٍ واسعة من ممتلكـات الامبراطورية.

فقد ضمت الامبراطورية العثمانية أراضي لم تكن تخضـع مبـاشـرة للإدارة الحـكـوميـة العثمانية. إذ عرفت بعض المقاطعات الحدودية أوضـاعاً حكـومية سيـاسية خـاصة، تميـزت بـالاستقلال الداخـلي (AUTONOMIE). ومن اجل تسهيل الصلات بـين الإدارة العثمانيـة المحليـة والسكان الخـاضعـين لهـا، اعتـرفت بالمؤسسات القائمة في الإمارتين: غربـي بلغاريا



□ جمال الدين الأفغاني

وصـربـيـا وعمـدة أو بـَاشـويـة (بـالتـركيـة KOCABACHI) شرقي بلغاريا واليونان. هذه المؤسسات لعبت دور الوسيط، إذ انها كـانت مسـؤولة أمـام السلطات عن تـأمـين جمـع الضرائب وحفظ الأمن والنظام في القرى التي تدخل في نطاق هذه الإمارات.

إضـافـة إلى ذلك فـإن بعض المقـاطعـات الحـدودية في الامبـراطورية العثمـانية تمتعت بـالاستقلال الداخـلي، وكانت بحكم الإمـارات التـابعة للبـاب العـالي. من هـذه المقـاطعـات الأوروبـيـة بعضـها تميز بالحكم الذاتي الداخلي الكـامل، وبحـرية انتخـاب أمـرائـه من قبـل الاقطاعيـين المحليـين، وإطلاق حريـةِ الأديان والمعتقدات وغير ذلك. ومقابل ذلك تعترف هذه الإمارات، من ناحيتها، بسيادة السلطان العليا وتكون ملزمة بتأدية الضرائب السنوية المحددة للخزنة السلطانية وتأخذ على عاتقها وعداً بعدم عقد اتفاقات مـع دولة أخرى(٣).

وقـد تـميـزت بـوضـع خـاص في إطار الامبراطورية العثمانية منـطقة الجبـل الأسود (MONTÉNÉGRO) المؤلفة من عـدة نواحٍ بزعامة أمراء محليـين وتعتبر الجمعية العمومية

ـ المنعقـدة بحضور كـل مواطن بلـغ السن القانونية ـ أعلى سلطة في البلاد. هذه الجمعية لها صلاحية التقرير في جميـع القضايا المتعلقة بـالمنـطقـة وتلعب دور الوسيـط بـين الشعب والسلطات العثمانية. ولكن على صعيد الواقـع يمكن القول إن السيادة العثمانية في الجبـل الأسود كانت شبه معدومة، إذ كان الأهالي هناك يعيشون ويحكمون بحسب عاداتهم وقوانينهم وليس بموجب القوانين العثمانية[٤].

إن الاستقـلال الداخـلي (AUTONOMIE) والحكم الذاتي (SELF-GOUVERNEMENT) للشعـوب البلقانيـة الخاضعـة للامبـراطوريـة العثمانية لم يكونا إطلاقاً هبة بدون حساب. إن الشرط الأول والأساسي لذلك وفي كل مكان يحدده دفـع مبالـغ كبـيرة كضرائب سنوية (ضنك) وتنفيذ بعض أعمال السخـرة والواجبات التي تحددها السلطات العثمانية. من هنا نرى أن الحقوق التي يمنحها الاستقلال الذاتي للشعوب الخاضعة كان يسمـح بها فقط إلى الحد الذي تمنحه الإدارة العثمانية.

إذا كان مصير شعـوب الجزئـين: الشرقي والأوسـط من شبه جـزيـرة البلقـان يـرتبـط بالامبراطورية العثمانية، فإن الوضـع الإقليمي السياسي للشعوب البلقـانية الواقعـة في أقصى الجزء الغربـي من شبه الجزيرة بقي قرونـاً متعددة رهناً بامبراطورية النمسا. وبالرغم من أن صفة الامبراطورية ـ تحكمها علاقات طبقية ـ تتشكل من أراضٍ وشعوب يربطها فيما بـينها بشكل رئيسي رباطُ السلالة أو الأسرة الحاكمة فيها، حيث أصبحت أسرة آل هابسبورغ حاكمة فيها، فقد أصبحت الامبراطورية النمساوية عاملاً مهماً في معركة إيقاف الزحف العثمـاني نحو الغرب. أما العلاقة السائدة بـين الامبراطورية والشعوب الخاضعة لها فقد كانت تعرف نوعاً من الاستقلال الذاتي الداخلي.

وهذا ينطبق على خرقاتيا (CROATIE)، دولة ذات أراضٍ محددة وإدارة محلية ذات جمعية عمومية برئاسة حاكم خاص بها. عرفت الأراضي السلوفانية (SLOVENIE)، كذلك، الواقعة تحت السيطرة النمساوية استقلالاً داخلياً مماثلاً[٥]. إضافة إلى هذا فقد أقيمت منـطقة عسكـرية



□ السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩)

خاصة سميت بالحدود العسكرية ذات تنـظيم ووضـع خـاص، حيث يحتل أمـراء الحـدود المحليـين مكانة مرموقة[٦].

وهكذا نرى أن الدول البلقانية المعروفة ـ في القرون الوسطى ـ اختفت من الوجود ولكن التقاليد الحكومية والشعور القومي لدى الشعوب البلقانية حافظا على بقائهما. لا بل عرفا النمو والتطور في ظل الظروف الجديدة التي طرأت على الامبراطوريتين: العثمانية والنمساوية. واتخذت شكلاً أساسيـاً من الحكم الذاتي والاستقلال الداخلي. وبالرغم من أن الحكم الذاتي يعتبر مؤقتاً ومنقوصاً وغير مستمر، فإنه بالنهاية أدى إلى قيـام مـا يسمى بـالإدارة المحليـة، التي أصبحت في ما بعد عقبـة مهمة في وجـه بقاء السيطرة الأجنبـية، إذ استـطاعت أن تحمي التقاليد الوطنية وتحافظ على الشعور القومي لدى الشعـوب البلقـانيـة، إضـافـة إلى مسـاهمـة المؤسسات الدينية والكنيسة الموجودة في هذا الاتجاه[٧].

بالرغم من أن السلطة الحكومية لم تُزَلْ كلياً، لكن التقاليد الحكومية والشعـور القومي لدى الشعوب البلقانية عرفا الضعف بشكل نسبـي في ظل السيطرة الأجنبـية.

فنظام الحكم الذي عرفته الدول البلقانيـة خـلال القـرون الوسـطى، تغيـرت قـاعـدتـه الاجتماعية. فبدلاً من أن تلعب طبقة الاقطاعيـين المحليـين دورها كمنظم لهذه الدول، فإنها زالت، أو تكيـفت مـع الوضـع السيـاسي الداخـلي للمحتل. ونتيجة لذلك فإنها أزيحت عن المسرح



□ اسطمبول، بجامعها (آيا ـ صوفيا) وبوسفورها.

السياسي في هذه البلدان باستثناء فلاخيا (VLACIE) ومولدافيا (MOLDAVIE) (أو كما وردتا في التسمية العربية الأفلاق والبغدان). ولكن المجتمع البلقاني عرف نضوجاً قوياً، تكونت بذوره من جراء الأوضاع العبودية السائدة في القرون الوسطى، وأصبحت وريثة السلطة الحكومية والتقاليد الحكومية لدى الشعوب البلقانية.

إن الأساس المادي لهذا التغير ـ بدون جدال ـ يتحدد في انحلال العلاقات الاقطاعية وولادة وتطور العلاقات الرأسمالية الجديدة التي تحققت في عصر النهضة[٨]. أما قاعدته الإيديولوجية فقد تطلبت القضاء على إيديولوجية القرون الوسطى الاقطاعية الدينية وتكوين الإيديولوجية البرجوازية التي تعتمد على العلم والفكر. فالمحتوى الأساسي لمرحلة عصر النهضة يمكن تحديده في المعركة القائمة بين البرجوازية الصاعدة والقوميات الناشئة من جهة والقوى الاقطاعية للنظام الاجتماعي الحكومي القديم من جهة أخرى. فالهدف النهائي لهذه المعركة يمكن تحديده بإنجاز التحرر الوطني وإقامة دول قومية خاصة لكل من الشعوب البلقانية[٦].

إن تفسخ الاقطاع العثماني من ناحية، ونهضة الشعوب البلقانية وانتشار حركتها الوطنية والتحررية من ناحية أخرى يعتبران اتجاهين مترابطين في ما بينهما، حيث وجدا الظروف المناسبة لتطورهما في تأزم ما سمي «بالمشكلة الشرقية[١٠]»، والذي أدى في ما بعد إلى ظهور دول قومية برجوازية خاصة أقيمت على أنقاض الامبراطورية العثمانية المتداعية.

وهكذا تشكلت خلال النصف الأول وأواسط القرن التاسع عشر على أنقاض الامبراطورية العثمانية دول مميزة للشعوب البلقانية مثل: اليونان، صربيا، الجبل الأسود ورومانيا. حيث قامت على أساس الشعوب التي تتألف منها وحسب المبدأ القومي القائل: «بحق كل شعب في تأسيس دولته المستقلة به».

إن تطبيق هذا المبدأ يؤدي إلى قيام دول قومية متعددة، لكنه لا يؤمِّن وحدة جميع الشعوب في هذه الدول. إذ ان الامبراطورية العثمانية قد انهارت وتراجعت ببطء، محافظة على جزء مهم من مقاطعاتها البلقانية، فاسحة المجال

أمام توسع امبراطورية آل هابسبورغ في الجزء الشمالي الغربي من منطقة البلقان[١١].

إذا كان النضال من أجل التحرر الوطني استمر عشرات القرون وأثمر عن ظهور الدول القومية المعروفة في منطقة شبه جزيرة البلقان، فإن الوصول إلى الحل الأمثل في المطابقة (COINCIDENCE) بين مفهوم كل من الأمة، الأرض، والدولة لم يتحقق. حيث دخلت فقط في حدود الدولة اليونانية التي أقيمت في الثلاثينات من القرن التاسع عشر منطقة البولوبونيز PÉLOPONNÈSE ومنطقة أثينا الأخرى مثل إيبير (EPIRE)، تساليا (THESSALIE)، سولون (SALONIQUE)، منطقة الجزر الواقعة على الشاطىء الجنوبي الشرقي لآسيا الصغرى والآستانة (CONSTANTINOPLE)، خارج نطاق هذه الدولة مع العلم بأنهم يفوقون عدد السكان الذين دخلوا في المناطق اليونانية المحررة[١٢].

وإمارة صربيا (SERBIE) قامت فوق أراضي باشوية بلغراد القديمة (BEOGRAD)، أما الصربيون في البوسنة (BOSNIE) والهرسك (HERZEGOVINE) وسنجق نوفي بازار (NOVI PAZAR) وفويفودينا (VOIVODINE) وغيرها، فقد بقوا تحت السلطة الأجنبية[١٣].

هكذا كانت الحال على وجه التقريب، أما في ما يتعلق برومانيا (ROUMANIE) والجبل الأسود (MONTÉNEGRO)، فالأولى كان لديهامواطنون تحت السلطة النمساوية، أما مواطنو الثانية فكانوا تحت السيطرة التركيبة. فقط اليونان كانت دولة مستقلة. أما الأقطار الأخرى فقد كانت تشكل إمارات تابعة (VASSALES) للامبراطورية العثمانية.

لهذا نرى أن قضية إنجاز التحرر الوطني الكامل للشعوب البلقانية وتوحيدها في دول قومية مميزة كان له مغزى كبير. حيث دخلت في حل هذه القضية عوامل متعددة وفاعلة. فالمستفيد الأول والمتأثر من قضية التحرر الوطني ــ بدون جدال ــ كانت الشعوب المسحوقة قومياً وبالتالي الشعوب البلقانية التي بقيت ضمن حدود السلطة الأجنبية عنها: تركية كانت أم نمساوية. وقد لعبت حركة التحرر الوطني لدى هذه الشعوب دورا مهما في تاريخ منطقة البلقان[١٤]. لكن هذه الفاعلية تبين في ما بعد أنها ضعيفة إذ انها منفردة كانت عاجزة عن القضاء على السيطرة العثمانية أو النمساوية وبالتالي لا تستطيع الوصول إلى حل القضايا والمسائل البلقانية حسب المبدأ القومي وعلى أساس ديمقراطي.

إن حركة التحرر الوطني، كما هو معلوم، لم تكن العامل الوحيد في سبيل النضال من أجل التحرر الوطني والوحدة القومية. بل إن الدول القومية البلقانية الناشئة أصبحت عاملاً مهماً أيضاً في هذه المعركة، حيث تدخلت في قضية تقرير مصير مواطنيها المتواجدين تحت سلطة أخرى، والعمل على تحررهم وتوحيدهم والحفاظ على حقوقهم القومية والتاريخية، وبالتالي كان لها دور مهم وتأثير كبير على حركة التحرر الوطني من أجل التحضير كي تلعب هذه الدول دور المحرِّر والمخلِّص. إذ ان كل دولة بلقانية كانت تتدخل وتقوم بدور الحامي والوصي، حيثما كان وحسب الإمكانيات وبشكل خاص على الأمة المعنية التي تخصها والمتواجدة خارج أراضيها.

لكن دور البرجوازية، والسلطات الحاكمة كعامل مقرر ورائد في سياسة الدول البلقانية لم يتوقف عند هذا الحد. إذ ان طموحاتها لم تنحصر فقط في تحرير المواطنين المتواجدين تحت السيطرة الأجنبية وإنما تعدتها إلى محاولات الإخضاع والهضم (ASSIMILATION) لشعوب من قوميات أخرى.

وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، برزت إلى جانب الدوافع الوطنية التحررية في سياسة الدول البلقانية، اتجاهات ومطامع غرست جذورها بعمق في التيارات الفكرية والسياسية لحركة التحرر الوطني والقومي البلقانية تمثلت بالرغبة في إقامة «دول كبرى» وأحلام الهيمنة[١٥]، منها (MÉGALI E IDEE) في اليونان.

والواقع أنه في الثلاثينات من القرن التاسع عشر طرحت المعارضة البرجوازية اليونانية فكرة إعلان «الدستور» كمطلب رئيسي. وبالفعل بدأت بإصدار الصحف التي تبرز على صفحاتها النقد

□ جانب من إحدى قرى تركيا.

اللاذع لسياسة وممارسة الأوساط الحاكمة مطالبة بإفساح المجال أمام الحريات السياسية والحياة الاجتماعية العادية.

وبعد إعلان الدستور قامت حكومة يوحنا كوليتيوس (١٧٧٤ — ١٨٤٧) — وهو سياسي بارع كان سفيراً لبلاده في فرنسا — وكانت تطمع بمساعدة فرنسا وروسيا من أجل تحرير اليونانيين وتوحيدهم في دولة واحدة. وقد بدأت حكومة كوليتيوس بنشر دعاية كبيرة تدعو إلى الهلينية (PANHELLÉNISME) وترتكز سياستها الخارجية على ما سمي بـ «الأفكار الكبرى» أو «المشاريع الكبيرة» التي ترنو إلى إقامة «اليونان الكبرى» وريثة الامبراطورية البيزنطية. وعلى هذا الأساس بدأت الجمعية التشريعية اليونانية باختيار نواب من إيبير، تساليا، مكدونيا، كريت وباقي المناطق الواقعة تحت السلطة العثمانية، وبدأ تشكيل الجمعيات والتنظيمات التي تدعو اليونانيين إلى الانتفاضة. بدأت الحملات الدعائية المعادية للعثمانية واعتمدت استانبول مركزاً للثقافة اليونانية، وهذا ما جعل العلاقات اليونانية — التركية في حالة توتر دائم.

وهكذا نرى أن الـ (MEGALIE IDÉE) تدعو إلى التحرر الوطني ولكنها في نفس الوقت تحمل طابع الأحلام القومية للبرجوازية اليونانية التي ترمي إلى قيام «اليونان الكبرى»، المكونة عبر ضم أراضٍ يشك بأنها يونانية أو تسكنها أقلية يونانية.

وفي صربيا برز ما يسمى بـ «مخطط غراشانن» «GARACHANEN» في الأربعينات من القرن التاسع عشر، حيث اتبعت صربيا برنامجاً لسياستها الخارجية يعتمد على «توحيد شعوب سلاف الجنوب في منطقة البلقان في إطار صربيا». هذه الخطة تعمل على تصفية السيطرة التركية في منطقة البلقان وإقامة دولة سلافية جنوبية على هذه الممتلكات بزعامة الأسرة الحاكمة والبرجوازية الصربية. وبمقتضى ذلك فإن على هذه الشعوب المتحررة من السيطرة التركية، أن تنضم إلى صربيا التي ستلعب دور الموحِّد لكونها مركزاً قيادياً قوياً.

إن «مخطط غراشانن» يأخذ بعين الاعتبار أهداف سلاف الجنوب في التحرر من الاقطاع التركي والسير في طريق الوحدة القومية. وهذا يمكن أن يخلّف أثراً في الشعوب السلافية الخاضعة لسيطرة النمسا ــ المجر والتي تناضل ــ هي الأخرى ــ للتخلص من الاحتلال النمساوي وتحقيق الوحدة مع باقي الشعوب السلافية. لكن هذه الخطة «لا تولي اهتماماً لنمو الشعور الوطني لدى الشعوب الأخرى لأنها تطمح لقيام «صربيا الكبرى». هذا البرنامج تبنى مصالح البرجوازية التجارية وأصحاب الأموال، لأنه ينظر إلى عملية الانضمام إليها عبر التوسع التدريجي لأراضي الإمارة الصربية وليس عن طريق توحيد الشعوب السلافية. بهذه الطريقة فإن هذا البرنامج يتجاهل نضال البلغار والخرفاتيين والسلوفانيين في سبيل الاستقلال الوطني والتحرر القومي، ويحاول أن يخضع نضالاتهم ومعاركهم لمصلحة البرجوازية الصربية. يبدو هذا كنتيجة واضحة لقيام وتطور الإيديولوجية القومية الصربية بعد إقامة إمارة صربيا وتوطيد سلطاتها.

وفي نفس الامبراطورية العثمانية، برزت فكرة الجامعة الإسلامية (PANISLAMISME) المعتمدة من قبل الأوساط الحاكمة بزعامة السلطان عبد الحميد الثاني. مؤسس هذه الفكرة هو جمال الدين الأفغاني، إذ كان يرمي إلى توحيد الشعوب الإسلامية في معركتها ضد الخطر الأوروبي. ولكن السلطان عبد الحميد استخدمها من أجل تحقيق أهدافه، بعد أن عجز عن كسب رضى الغرب (ساوى بين العناصر والأقوام في السلطنة بإعلانه الدستور)، ورأى أن القوى الكبرى الأوروبية لا يهمها المساواة بقدر ما يهمها القضاء على السلطنة لاقتسام تركتها، خاصة بعد أن كثرت ديونها وأشرفت خزينتها على الإفلاس. من هنا فإن السلطان استعاض عن هذه القوى الأجنبية بتأمين دعم الأوساط الإسلامية له في معركته ضد حركات التحرر والانفصال التي تواجهها الامبراطورية. وفي هذا المجال قويت الدعوة إلى إقامة امبراطورية إسلامية جديدة تجمع بين المسلمين في شمالي أفريقيا ــ الهند، وآسيا الوسطى بزعامة الخليفة ــ السلطان.

إلى جانب الجامعة الإسلامية برزت دعوات وأفكار أخرى منها: الجامعة التركية والجامعة العثمانية وكانتا معاً تدعوان إلى الحفاظ على وحدة الامبراطورية وتشجبان التدخلات الخارجية في سياسة تركيا، وتعملان على مواجهة الحركات القومية للشعوب الخاضعة لها، تطورتا في ما بعد واتخذتا شكل «تركيا الفتاة»، الذي يدعو إلى توحيد جميع الشعوب الخاضعة للامبراطورية في أمة واحدة هي التركية[16].

هذه المشاريع أصبحت عقبة مهمة في توحيد جهود حركة التحرر الوطني إلى جانب جهود الدول البلقانية / أو أكثرها / من أجل تأسيس اتحاد وطني تحرري في وجه السيطرة الأجنبية على منطقة البلقان.

بخلاف الامبراطورية العثمانية التي دخلت منطقة البلقان وتصرفت مع سكانها تصرف القوة المحتلة، فإن امبراطورية النمسا ــ المجر اعتمدت سياسة بلقانية من غير إشعال حروب مباشرة مع الشعوب والدول البلقانية وإنما نحت منحى الاتفاقات المعقودة أو عن طريق ضم أراضٍ بلقانية كانت من قبل تخضع لسيطرة السلطنة العثمانية أو الإيطالية. هذا وقد شهدت امبراطورية آل هابسبورغ صراعاً دائماً بين اتجاهين رئيسيين هما: الحكم المطلق والمركزية من ناحية، والاستقلال الذاتي والفدرالية (الاتحادية) من ناحية أخرى. فالاتجاه الأول يمثل الطبقات المسيطرة والأوساط الحاكمة في النمسا والمجر، بينما الثاني يعكس التقاليد القومية والعادات التاريخية لمختلف الشعوب التي تدخل في إطار مملكة الدانوب. هذا لاتجاه اعتمدته حركات التحرر الوطنية لدى هذه الشعوب وأصبح مسبباً في زوال امبراطورية النمسا ــ المجر.

من هنا يمكن القول أن امبراطورية النمسا ــ المجر لم تستطع أن «تمتلك» المقاطعات البلقانية وتحتويها تماماً لتتمكن من القضاء على ظاهرة الاستقلال الداخلي والحكم الذاتي لدى الشعوب البلقانية الخاضعة لها. ولكن على العكس فإن التطور الاجتماعي التاريخي أدى إلى قيام حركات التحرر القومي التي وضعت مسألة

التحرر الوطني في المرتبة الأولى على طريق تصفية هذه الامبراطورية إن لم يكن إعادة تنظيمها.

إن أحلام «الهيمنة» وفكرة إقامة «دولة كبرى» والظاهرة القومية لم يكونا فقط لدى الطبقات الحاكمة في النمسا ــ والمجر، وإنما برزت مفاهيم مماثلة لدى الشعوب البلقانية المحكومة، ففي نهاية القرن التاسع عشر تبلور الوعي القومي لدى الصربيين والخرفاتيين الخاضعين لآل هابسبورغ. وهذا لا يمنع قيام معارك منافسة قوية فيما بينها. وعلى هذا الأساس يكون الحديث عن مشروعين مهمين: أولهما لقيام خرفاتيا الكبرى وثانيهما لتحقيق صربيا الكبرى. أول من سعى لتحقيق المشروع الأول، حامل الإيديولوجية الخرفاتية، البرجوازية المتوسطة والصغرى الخرفاتية التي تمثلت بقيام حزب سياسي هو حزب العدالة. أما أهم الشعارات التي طرحها: «أنه لا يوجد في خرفاتيا صربيون وإنما هناك خرفاتيون كاثوليك وأرثوذكس وعلى هذا فإن البوسنة والهرسك تعتبران جزءاً متمماً لخرفاتيا وان السكان المسلمين فيهما هم خرفاتيون أيضاً، وأن السلوفانيين هم خرفاتيون ريفيون، وجميع السكان من نهر الدانوب إلى بحر الأدرياتيك ومن مكدونيا إلى ألمانيا شعب واحد فقط، وطن واحد، حياة واحدة خرفاتية».

من هنا نرى أن الصراع بين دعاة «صربيا الكبرى» ودعاة «خرفاتيا الكبرى» استمر في النمو والازدياد وانعكس في المعارك الدائمة فيما بينهما. كذلك فإن حركة التحرر الوطني في الجزء الغربي من شبه جزيرة البلقان، تأثرت كثيراً بفكرة «اليوغسلافية» القائلة بوحدة وتعاون شعوب سلاف الجنوب، وأن سلاف الجنوب يكونون شعباً واحداً بأسماء مختلفة[١٧].

أما الحركة الوطنية الرومانية التي ظهرت في ترانسلفانيا (TRANSILVANIE) فهي الأخرى لم تعرف الوحدة إذ ان الحزب الوطني الروماني بقي صامتاً تجاه المطالب القائلة بضم ترانسلفانيا إلى رومانيا[١٨].

إن المعارك الداخلية التي أوجدتها هذه المشاريع والمخططات أضعفت حركات التحرر الوطنية واستنزفت قواها فوضعت فكرة التعاون والوحدة بين سلاف الجنوب في الواجهه.

من ناحية أخرى، فإن القضية القومية في منطقة البلقان وكذلك المسألة الاقليمية / في ما يتعلق بأراضي وحدود مختلف الدول البلقانية/ قد تبين أنهما لم يكونا قضية بلقانية صرفة فشبه جزيرة البلقان ومنطقة الشرق الأوسط اتخذتا مكاناً خاصاً في دائرة النشاط الأوروبي والاستعماري للسياسة الدولية، حيث أظهرت جميع الدول العظمى اهتماماً مميزاً نحو هذا الجزء من العالم لأنها بدورها كانت تطمع في وراثة ممتلكات السلطنة العثمانية[١٩]. وإذا كانت الدولة العثمانية قد تراجعت ببطء وانهارت على امتداد قرون، فإنه يمكن تفسير ذلك، ليس فقط، في «قوتها التي لا تقهر» وإنما في انقسام أوروبا بسبب التناقضات الموجودة بين القوى العظمى الأوروبية حول شبه جزيرة البلقان ومنطقة الشرق الأوسط[٢٠].

من هنا يمكن القول أن قضية قيام دول بلقانية، ذات مساحات محددة وأراضٍ معروفة لم تكن فقط قضية شعوب هذه الدول ومن اهتماماتها، وإنما كانت ترتبط بمخططات ومصالح وأهداف هذه الدولة الكبرى أو تلك، وتتناسب مع الوفاق الدولي المتعارف عليه، وتتبع السياسة الدولية، لتصبح جزءاً لا يتجزأ من العلاقات الدولية، فالقضايا البلقانية على الأرجح لم تكن تجد الحل إلا عن طريق الحروب.

إن مفاهيم حل المسائل البلقانية بشكل إجمالي يمكن تصنيفها بأنها وضعت جميع الدول البلقانية ضد جميعها، وبذرت الشقاق والانقسام فيما بينها، وإن كانت بعض هذه المفاهيم تدعو إلى الوحدة والتضامن. فالفئة الأولى من هذه المشاريع يمكن وصفها بأنها تحررية، ولكنها تحوي في داخلها افكار التسلط والهيمنة والسيطرة، أما الثانية، فكانت ترى حل القضايا البلقانية عبر قيام دول موحدة مشتركة ولكن مصيبتها أنها لم تكن ترى كيفية قيام هذه الوحدة وعلى أي أساس. إن قضية البلقنة أخذت أشكالاً ومفاهيم أخرى ولكنها لا تزال تستمر حتى أيامنا هذه، أغنية قديمة ولكن بصوت جديد.

الهوامش

(١) **ل. بنياتوف**: المسألة القومية في شبه جزيرة البلقان والحروب البلقانية. عن المؤتمر الأول للجمعية التاريخية البلغارية. صوفيا ١٩٧٢، (ص ٥٧٣ ــ ٥٨٣)؛ **ك. مانتشيف**: تاريخ الشعوب البلقانية من الاحتلال العثماني لمنطقة البلقان وحتى الحرب العالمية الثانية. فليكو تورنوفو ١٩٧٩ ــ باللغة البلغارية.

(٢) **J. LAMOUCHE,** HISTOIRE DE LA TURQUIE Dépuis L'origine jusqu'à nos jours. PARIS 1934; **H. INALGIK,** THE OTTUMAN EMPIRE. LONDON. VRIORUM. 1978; **A.D. NOVITGHEV:**

تاريخ تركيا

الأجزاء من ١ ــ ٤، العصر الحديث ــ القسم الثالث ١٨٥٣ ــ ١٨٧٥، لينينغراد ١٩٧٨ ــ باللغة الروسية

(٣) **ION MATET,** L. AUTONOMIE DE PAYS ROUMAINS. B: RES. DES COMMUNICATIONS. T. 1. BUCAREST. 1974. P. 388-389;

نفس المؤلف:

QUELQUES PROBLÈMES CONCERNANT LE RÉGIME DE LA DOMINATION OTTOMANE DANS LES PAYS ROUMAINS. REV. ET. SUD-EST EUROP. 1972. N. 1. P. 65-82; 1973. N. 1. P. 81-96:

(٤) **س. ديمتروف، ك. مانتشيف**: تاريخ الشعوب البلقانية من القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر. صوفيا ١٩٧١، ص ٣٤٥ ــ ٣٤٧ (باللغة البلغارية):

F.S. STEVENSON, A HISTORY OF MONTENEGRO. NEW YORK. ARNO PRESS. 1971.

(٥) **أ. ماتياش، أ. سوبولتش**: تاريخ هنغاريا، صوفيا ١٩٦٨، (باللغة البلغارية)؛ **ب. بوتشار**، تاريخ سلوفانيا السياسي. بلغراد ١٩٣٩، (باللغة الصربية):

F.SISIC, PREGLED POVIGESTI HRVATSKOGA NARODA. ZAGREB. 1962.

(٦) **J. AMSTADT,** DIE KONIGLICHE UND KAISERLICHE MILITARGRENZE 1522-1881. WURZBURG. 1969

(٧) **ت. سيبيق**: الكنيسة البلغارية ــ الأرثوذكسية ــ وحركة التحرر الوطني. صوفيا ١٩٧٧، ص ٧ ــ ٧٣ (باللغة البلغارية)؛

CHARALAMBUS PAPASTATHIS, L'EGLISE ET LE DROIT COUTUMIER AUX BALKANS Pendant la domination OTTOMANE. BEUGRAD 1874. P. 187-196; **WILLIBALD M. PLÜCHI,** DIE ORTHODUXE KIRCHE IN DER HABSBURGISCHEN RONRUMONARCHIE 1526«1918. STUDIA BALCANICA. 1972. No. 1. P. 17-39.

(٨) **س. ديمتروف**: من تاريخ النهضة البلقانية، دراسات بلقانية، عدد ١٣، صوفيا ١٩٧٧ (باللغة البغارية).

(٩) مصدر سابق، ص ٢٣٠.

(١٠) **ج. ب. غانيف**: المسألة الشرقية، التاريخ الدبلوماسي والسياسي، الجزءان ١ ــ ٢، صوفيا ١٩٢٥ ــ ١٩٢٦؛ **ف. بوبوفيتش**: المسألة الشرقية، بيوغراد ١٩٢٨؛

M.S.ANDERSON, THE EASTERN QUESTION. 1774-1923. A STUDY IN INTERNATIONALS RELATIONS. LONDON. MELBOURN. MACMILLAN. NEW YORK 1966; **E.DRIAULT,** LA QUESTION D'ORIENT depuis SES ORIGINES jusqu'à NOS JOURS. 4éd. PARIS. 1909.

(١١) **T.C.DJUVAPA,** CENT PROJETS DE PARTAGE DE LA TURQUIE 1281-1919. PARIS; **R.PINON,** L'EUROPE ET L'EMPIRE OTTOMAN. PERRIN. 1909.

(١٢) **N.TUDOROV,** LA PHILIDI HETAIRIA ET LES BULGARE. SOFIA 1965; **APOSOLOS VACALOPOULOS,** HIS TOIRE DE LA GRECE des origines à Nos jours. PARIS. HORVATH. 1974:

ن. ل. **حاجينوس**: نظرية تكوين الدولة وأشكال الدولة اليونانية الجديدة. صوفيا ١٩٦٩، (باللغة البلغارية).

(١٣) **غ. ياكشيتش، د. سترانوفيتش**، صربيا من ١٨١٣ ــ ١٨٥٨، بيوغراد. د.ت. ؛ **ف. بوروفيتش**، صربيا من ١٨٥٨ ــ ١٩٠٣، بيوغراد. د.ت.

(١٤) **ن. تودوروف**: دور البلغار في حركات التحرر الوطني، صوفيا ١٩٧٤، ص ١١٧ ــ ١٨٩؛ علاقة حركة التحرر الوطني البلغارية بحركات التحرر البلقانية، صوفيا ١٩٧٢، ص ٤٧٧ ــ ٤٧٩ (باللغة البلغارية).

(١٥) راجع: **د. لطفي المعوش**، القضايا القومية والإقليمية لشعوب شرقي أوروبا من مؤتمر برلين وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى، صوفيا ١٩٨٣، ص ٣٤ ــ ٥٨ (باللغة البلغارية).

(١٦) **أ. د. نوفيتشيف**، مختصر تاريخ تركيا، موسكو ١٩٦٥، ص ١١٢؛ **إميل توما**، تاريخ مسيرة الشعوب العربية، موسكو ١٩٧٧، ص ٢٥٣ ــ ٢٥٤.

(١٧) **D. Biber,** Jugosloveuska Ideja in Sloveusko Naroduc Vprasauje 1912-1913. Beogrod 1959. G. 291-299.

(١٨) **ج. بربالوف**، رومانيا وحركة التحرر الوطني في ترانسلفانيا في نهاية القرن التاسع عشر، صوفيا ١٩٧٦، ص ١٣٩.

(١٩) تاريخ الدبلوماسية، الجزء الثاني، صوفيا ١٩٦٥، ص (٨٧ ــ ٨٩٤)؛ **س. دميانوف**، بلغاريا في سياسة الدول الكبرى (١٨٧٨ ــ ١٩١٨)، صوفيا ١٩٨١، ص ٣٠٦.

(٢٠) راجع هامش رقم ١٨.

وليم شكسبير
(١٥٦٤ - ١٦١٦)



لا نعرف الكثير عن حياة شكسبير ولا عن عبقريته الفذّة. لم يصل إلينا من كتابة يده لا صفحة ولا رسالة رغم أن جحافل وقوافل من كبار الاختصاصيين كرّسوا معظم أوقاتهم لنقد مسرحياته وأشعاره لكنهم لم ينجحوا في اكتشاف ذيول الخيوط المؤدية إلى الاهتداء إلى أسرار حياته التي عاشها في «ستراتفورد — أون — آفون». لقد تفرّد شكسبير في عمق تأثيره في قلوب قرائه وقدرته على التأثير فيهم. قبل مجيئه بآلاف السنين وبعده بأربعماية منها لم يتوصل كاتب إلى مستوى يوازي شكسبير في قدرته على سبر أغوار النفس البشرية والوقوف على كل مفترق من مفارق تلك النفس وما يحمله من أسرار مكنونة بحاجة لتفسير وترجمة حقيقية.

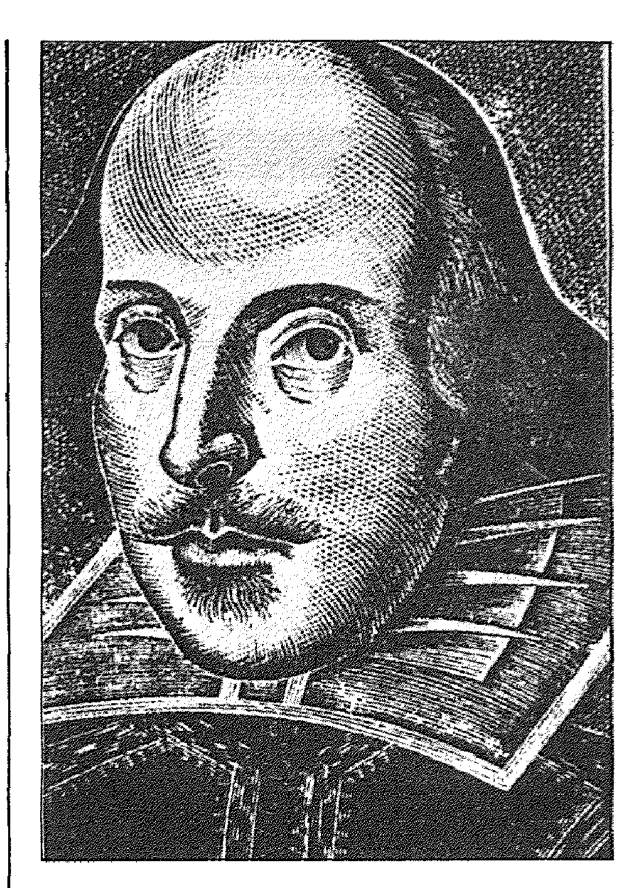
عَرَفَتْ قرية «ستراتفورد — أون — آفون» عام ١٥٦٤ ولادة عبقري، ابن صانع قفازات ومن بعدها مختاراً لبلدته. أما أمه، «ماري آردن»، فقد تجذرت من أسرة كريمة وورثت أرضاً قيمة جداً. تثقف وليم في مدرسة القرية فدرس الإنكليزية واللاتينية والتاريخ. بعد ذلك، غادر القرية إلى مكان لا نعرف الكثير عنه ويقال أنه درّس وعمل كاتباً قانونياً واستخدم في أحد القصور إلى أن تزوج، في الثامنة عشرة من عمره، من «آن هاثاوي» التي كبرته بعشر سنوات والتي أنجبت له ثلاث بنات، سوزانا وهامنت وجوديت. ترك العائلة في القرية واتجه ناحية لندن حيث مارس مهنة التمثيل وأنشأ فرقة مسرحية درّت عليه الكثير. يقال بأن شكسبير لم يكن على صلة جيدة مع زوجته التي اشتهرت في القرية بأنها جذبت شكسبير لكثرة مالها فقط. لكن شكسبير كان مخلصاً لها لأنه أوصى بها خيراً بعد مغادرته القرية.

في لندن أصبح شكسبير شاعراً وممثلاً معروفاً وشهيراً فكتب قصيدته المعروفة «فينوس وأدونيس» التي قدّمها إلى «إرل سوذمبتن الثالث» مع قصيدة «الاعتداء على لوكريس». كتب في المقدمة:

«إن الحب الذي أخصّ به حضرتكم لا حد له ولا حدود».

كان بعد ذلك، عضواً بارزاً في «فرقة الملك» التمثيلية وكان محبوباً مستعداً لأخذ أي دور في التمثيل. هذه القدرة برزت في مواقفه التحليلية وتألّقه الشعري. عرض على المسرح الإنكليزي أبطالاً مليئة بالضعف والشكوك والميول غير البطولية وهو الذي عرض بطلات تتصارع فيهن العفة والشهوة وعرض ملوكاً جبناء ضعفاء وملكات شريرات خبيثات وأمراء مجرمين يعذبهم ضميرهم وقواداً للجيش غير وطنيين وعرض مهرّجين يصنعون العظائم والمعجزات.

كتب ١٥٤ أغنية «SONNET» كاشفاً نفسه على حقيقتها كإنسان فخور بنفسه وشعره متحدياً الحرب والنار والدمار والوقت وحتى الموت — أقوى وسائل التدمير. في هذه القصائد يعطينا شكسبير مفتاح السر إلى باب القلب. تتألف «السونيت» من ١٤ سطراً يعرض فيها الفكرة ويعالجها ويستنتج الخلاصة ويلقّن الدرس — درس الحياة أن الموت محتم وهو القوي وهو المنتصر على الحب والجمال. يفتخر شكسبير بأن الأجيال القادمة سوف تردد قصائده وستكون



□ وليم شكسبير.

عامل خلود لتراثه وكتاباته القيمة.

أما مسرحياته المأساوية كـ «هاملت» Hamlet فإنها ترتكز على ميلودراما أعطاها حياة وبعداً جديدين ــ تمثل السخرية من التقاليد واحتقار الجنس والإسراف في التردد والحيرة والترحم على عبثية الحب. في هذه المأساة تظهر عبقرية شكسبير حين يستخرج مأساة خالدة من قصة ــ تمثيلية جوفاء متصنعة الظواهر.

في «روميو وجوليت» Romeo & Juliet رفع شكسبير الحب الشاب إلى درجة عالية مستنكراً الحقد والضغينة. جوليت، الفتاة الحلوة البريئة يقابلها «مركوشيو» Mercutio السفيه البذيء والمربية الحسودة الحالمة حيث تشاهد جمال المقارنة بأسلوب مسلٍ رغم خشونته.

كتب «مارك تواين» Mark Twain تحت عنوان «هل كان شكسبير عظيماً؟» Was Shakespeare famous ما معناه حول عظمة وشهرة وعبقرية وسمعة شكسبير بأن هذا الأخير لم يكن معروفاً البتة حتى في قريته الصغيرة نفسها؛ وأهل القرية لا يذكرون أن قريتهم عرفت في سجلاتها شخصاً يدعى وليم شكسبير. كذلك لا يذكرون أن بلدتهم ودعت، في مأتم شعبي، إلى الدار الآخرة، عبقرياً كشكسبير دون أن يدري أحد بذلك. أما «مارك تواين» فيعرف كل سنتم واحد على طول نهر «المسيسيبي» Mississippi حيث تقع بلدته «هانيبل» Hannibal وكل أهل البلدة يعرفونه. فلماذا أهل «ستراتفورد ــ أون ــ آفون» Stratford-on-Avon لا يعرفون شكسبير؟ فهل كان عبقرياً حقاً أم مجرد إنسان عادي محدود الثقافة مغموراً؟ هل كان شكسبير هو نفسه كاتب ١٥٤ سونييت و٣٨ مسرحية أم هناك «أحدهم وراء هذا الأسم قام بكتابة هذا الإنتاج الضخم تحت اسم مستعار «شكسبير»؟

رأى بعضهم أن الأديب «فرنسيس بايكون» Francis Bacon قد يكون هو شكسبير الحقيقي. وقال البعض الآخر أن «كريستوفر مارلو» Christ-opher Marlow و«وليم ستانلي» William Stanly قد يكونا شكسبير الحقيقي. لكن بعضهم ممن عاصر شكسبير يقول بأنه هو نفسه واضع المسرحيات المنسوبة إليه باستثناء القليل منها.

يقول الناقد «جون درايدن» في مقالته النقدية الشهيرة «الشعر الدرامي» أن شكسبير كان عالماً بطبيعته فعندما يصف شيئاً في الطبيعة فإننا لا نرى هذا الشيء فقط بل نشعر به أيضاً.

إن شكسبير حاكى مختلف الشخصيات البشرية من ذكور وإناث وملوك ومهرجين. وكان بقوة خياله وأناقة عبارته لا يضارع إطلاقاً. عالج الخير والشر والرذيلة والفضيلة كعالم نفساني فأثارت هذه الطريقة الكثير من العلماء ضده كالدكتور «صموئيل جونسون» في «مقدمته» الذي انتقده بشدة لأنه لم يلتزم ولم يراعِ في مسرحه الغايات الخلقية.

في غمرة هذا كله، كانت العفة الإنكليزية في حالة مخاض وتخلو من قواعد ثابتة لقواعد التركيب والبيان. كانت بريطانيا تتأثر بالنهضة الإيطالية المزدهرة فانتهز شكسبير هذه الفرصة فابتدع الصور البيانية وألّف العبارات الشيقة. وهذا هو السبب الرئيسي لابتداع الحكايات الملفّقة ضده والتي كانت تتهمه بالفحش وارتكاب الفضائح والسرقة.

كان شكسبير صديقاً حميماً للكاتب المسرحي الشهير «بن جونسون» Ben Jonson مما جعل البعض يعتقد بأن شكسبير شاركه في مغامراته. أما الحقيقة فهي أن شكسبير كان هادئاً ينفق من ماله باتزان وبطريقة حكيمة.

لُقّب شكسبير «جنتلمان» gentleman لنجاحه في حقل الشعر والمسرح وخاصة في حقل كتابة المسرحيات التاريخية. وهذا اللقب لا يناله إلّا القليل في عالم الأدب. لقد صوبوا نحوه سهامهم وخاصة بعد وفاته زاعمين أن معظم قصصه قد اقتبسها من القدماء أمثال «بلو تارك» Plutarch و«أوفيد» Ovid ومن التاريخ البريطاني والأساطير القديمة.

أعاد شكسبير حكايات مألوفة في فنون الدراما بأسلوب فذّ كما أوجد أبطالاً غير معروفين وملوكاً وحسناوات ومحاربين وقواد جيش تميزوا بالعمق المذهل للنفس. كان بارعاً في صياغة أسلوبه، ساحراً في بيانه مميزاً في بيئته. توهج المسرح في أيامه وتميز بالعمق الفكري وعمق تفكيره.

«مكبث» Macbeth قصة شعبية حوّلها شكسبير إلى مأساة شيقة ارتكزت على زوجين مجرمين يطاردهما شبح «بانكو» Banquo الرهيب ويجعل نهايتهما محزنة — زوج ضائع في زحمة الحياة وزوجة تسير وهي نائمة. حوار المسرحية ينبض بالحياة وشعرها متناغم والغايات تسير فيها لكي يحصل التنبؤ.

وفي «عطيل» Othello أضفى شكسبير على القصة من خياله الوهاج وحوّلها من جريمة قتل عادية إلى جريمة بعيدة الآثار على كل ما يحيط بها.

وبعد تلك الفترة الطويلة التي شغل بها مسارح لندن عاد شكسبير إلى قريته ليقضي أيامه الأخيرة في بيت اشتراه هناك. لكن الموت لم ينتظره طويلاً حيث توفي في بلدته ليلة ٢٣ نيسان ١٦١٦ م بعد اثنتين وخمسين سنة من العمل الدؤوب ليبقى في قلب وفكر عشاقه ونقاده وقرائه وفي جدل مستمر وأبدي وفي تساؤل: هل الذي كتب هذا النتاج الضخم هو بالفعل شكسبير أم مجموعة كتّاب؟

الياس فياض طراد
الجامعة اللبنانية / كلية الآداب
الفرع الرابع — البقاع



أفكارنا تحكم حياتنا

● نحن نعيش بالأعمال، لا بالسنين، بالأفكار لا بالأنفاس، بالأحاسيس لا بأرقام على صفحة، ينبغي لنا أن نقيس الزمن بتنهدات القلب. إن من يفكر كثيراً ويحس أنبل الأحاسيس ويقوم بأفضل الأعمال هو الذي يحيا حياة كاملة مملوءة.

لتكن لنا أفكار عالية، ولكن ليكن منبتها في صميم القلب

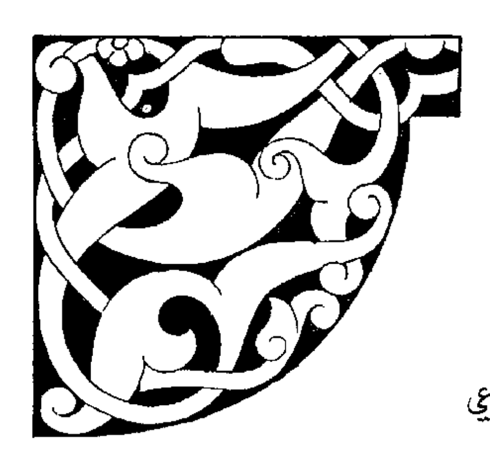
أتدري أن أفكارك هي التي تحكم حياتك، سواء أكانت أفكارك نقية أم غير نقية؟ كما تفكر هكذا تكون. وأنت تصنع نجاحك أو فشلك في هذه الحياة بأفكارك نفسها.

لا بأس أن تعلق عربتك بالنجمة، ولكن إحتفظ بقدميك على الأرض.

إن أكثر الأشياء بعثاً على الرضى في هذا العالم هي الأفكار السارة، اللطيفة، وأن أعظم فن في الحياة هو أن يكون لدينا أكبر عدد ممكن من هذه الأفكار.

أنت لا يمكن أن تدري أبداً ما هو دور الأفكار في اجتذاب الحقد أو الحب إليك. ذلك بأن الأفكار أشياء، وأجنحتها الهوائية أسرع من الحمام الزاجل. إنها تتبع قانون الكون. كل شيء ينبغي أن يخلق صنوه، وهي تتسابق لكي تعود إليك بما صدر عن فكرك.





المنبر الحلبي[*] للمسجد الأقصى

المهندس الدكتور: محمود فيصل الرفاعي

□ رئيس قسم تاريخ العلوم التطبيقية، أستاذ في جامعة حلب ـــ سوريا.

١ ـــ أحداث جسام:

ما كاد الفرسان في حلب أن يترجلوا ليخلعوا عنهم عدة الحرب في القرن العاشر الميلادي من تصديهم أيام سيف الدولة الحمداني لهجمات الروم على الحدود الشمالية للدولة العربية حتى هب اعصار الحروب الصليبية على المنطقة بعد صيحة البابا اوربان الثاني عام ٤٨٨هـ / في في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٠٩٥م في مدينة كلير مونت بفرنسا، وحقق الصليبيون ذروة انتصارهم بعد اجتياح بلاد الأناضول والمناطق الساحلية من بلاد الشام باحتلال القدس عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، فهدموها وقتلوا أهلها وأحرقوا المسجد الأقصى ومنبره الذي صنع في حلب.

انتقل حكم حلب إلى السلاجقة حين دخل ملك شاه حلب عام ٤٧٨هـ/١٠٨٦م وهو ابن الب ارسلان وقد تحول اسم الحاكم من خليفة إلى سلطان بعد أن حكم السلاجقة العراق.

ينحدر السلاجقة من تركستان وأصلهم من قبائل لم تفسدها المدن فدخلوا في الإسلام أفواجاً بحماس وإقبال شديدين وانتشروا في إيران والجزيرة وسوريا والأناضول، وقد أثار السلاجقة الحمية التي فقدها المسلمون[1] وردوا الروم البيزنطيين عن كثير من أراضي الأناضول وأنشاوا جيلاً قوي الإيمان ماضي العزم.

عين ملك شاه السلجوقي الأمير آق سنقر (٤٧٨هـ/١٠٨٦ ـــ ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) أميراً على حلب.

أسس السلاجقة دولة عسكرية كان قوادها الأتابك وكانت تستعين ببعض منهم عندما كانوا يبلون بلاءً حسناً فتكافئهم على أعمالهم بتوليتهم مناصب كبرى. ومن هؤلاء عماد الدين بن آق سنقر مؤسس دولة الأتابكة الزنكيين في الموصل وقد دخل إلى حلب عام ٥٢٢هـ/١١٢٨م ليؤسس فيها الحكم الزنكي تلاه ابنه نور الدين محمود الذي لقبه أهل حلب (بالشهيد) بعد وفاته.

وقفت حلب سداً منيعاً في عهد السلطان عماد الدين الزنكي وفي عهد ابنه نور الدين محمود أمام هجمات الصليبين وتميز كلاهما بالبأس وقوة الشكيمة والإقدام إذ لم يستطع الصليبيون ان يدخلوا حلب قط بل على العكس انطلقت من حلب الجيوش بقيادة عماد الدين فحررت الرها (اورفة) من الصليبيين عام ٥٣٨هـ/١١٤٤م بعد أن كانت معقلاً هاماً لهم في جنوبي الأناضول.

أصبح الوقت في حلب يستدعي القوة

(*) عن كتاب سيصدر قريباً للكاتب بعنوان «حلب بين التاريخ والهندسة».

العسكرية فانشأ الأمير نو الدين محمود لقواته حياً خاصاً داخل سور حلب له ساحة مخصصة للتدرب على إطلاق السهام لا يزال موجوداً اليوم ويعرف بحي التركمان وحقل مغطى بالعشب الأخضر للتدرب على ركوب الخيل في شمال حلب.

٢ ـــ منبر المسجد الأقصى:

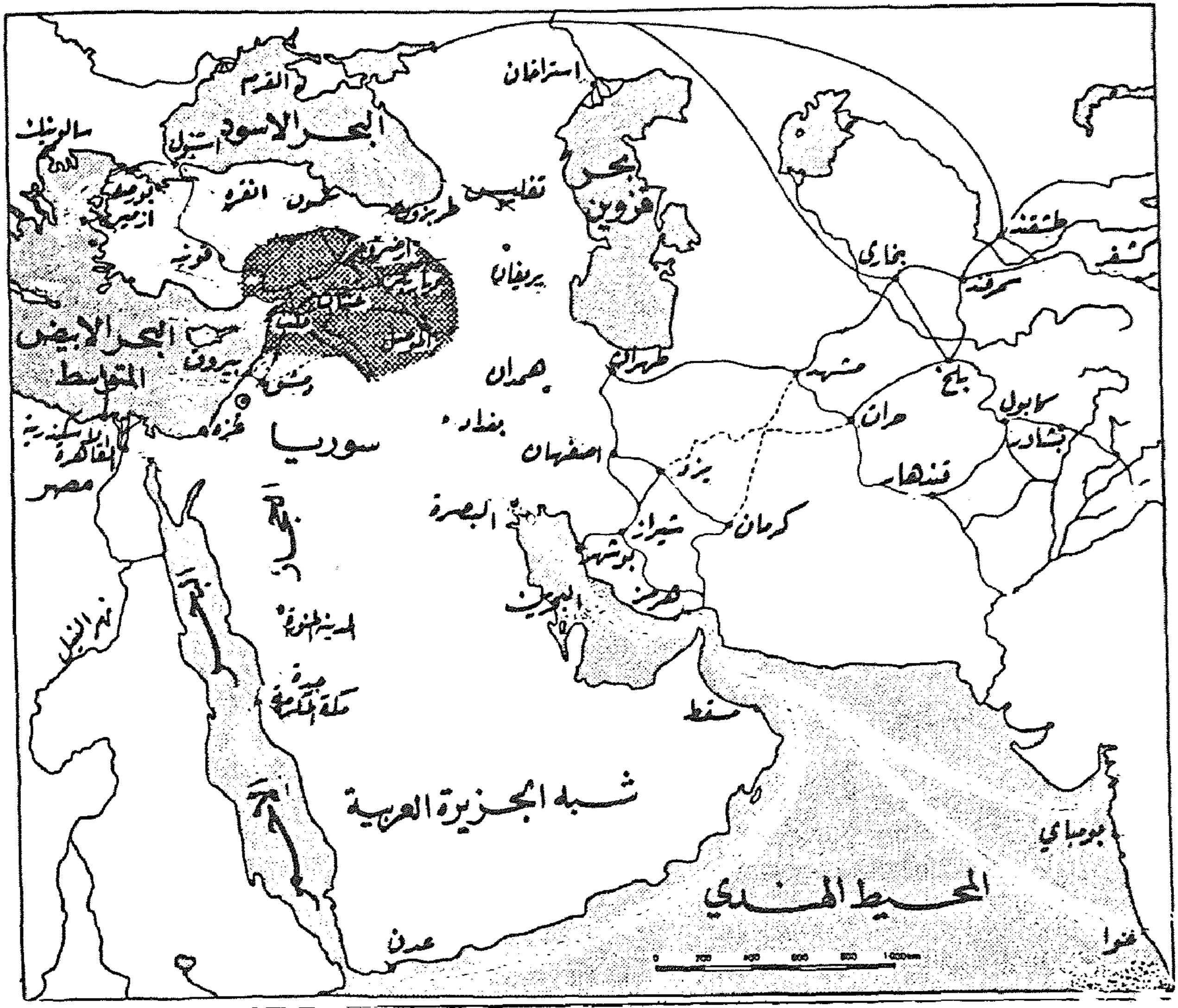
المسجد الأقصى[2] في القدس هو أولى القبلتين وهو المسجد الثالث في الأهمية بالنسبة للمسلمين بعد المسجد الحرام بمكة المكرمة والمسجد النبوي في المدينة المنورة فقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى) وعن أبي ذر رضي الله عنه قال (قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أولاً؟ قال المسجد الحرام قلت ثم أي قال المسجد الأقصى قلت كم بينهما؟ قال اربعون سنة وأينما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد).

فالمسجد الحرام هو أول بيت من بيوت الله وضع في الأرض أمر الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ببنائه. والمسجد الأقصى هو ثاني مسجد على الأرض عمل على إنشائه يعقوب وجدده داود وأتم بناءه سليمان عليهم السلام.

وبعد سليمان انحرف العبرانيون عن الصراط المستقيم بارتكابهم الفواحش والموبقات فسلط الله عليهم الآشوريين ثم البابليين الذين دخلوا القدس وسبوا العبرانيين وبعد أن أنقذهم الله عادوا إلى فسادهم وضلالهم فسلط الله عليهم الروم مرتين. وحين أصبحت المسيحية الدين الرسمي للامبراطورية البيزنطية في القرن الرابع هال البيزنطيين غدر اليهود بالسيد المسيح فجعلوا الهيكل مكان قمامة.

وحين أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن في ذلك المكان بناء معروف بالمسجد الأقصى وإنما أشير اليه في الآية الأولى من سورة الإسراء (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) لأنه كان مكاناً لعبادة الله. وأصبح لهذا الموقع مكانة كبرى في الإسلام بعد أن عرج الرسول صلى الله عليه وسلم من موقع الصخرة المشرفة فيه إلى السماء.

ولما دخل المسلمون بيت المقدس عام ١٤هـ / ٦٣٦م أزال الخليفة عمر بن الخطاب الأقذار ومضى نحو محراب داود فصلّى فيه ثم قرأ سورة (ص) وسجد. وتُجمع أغلب الروايات على أنه تم بناء المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وعهد الوليد ابنه.

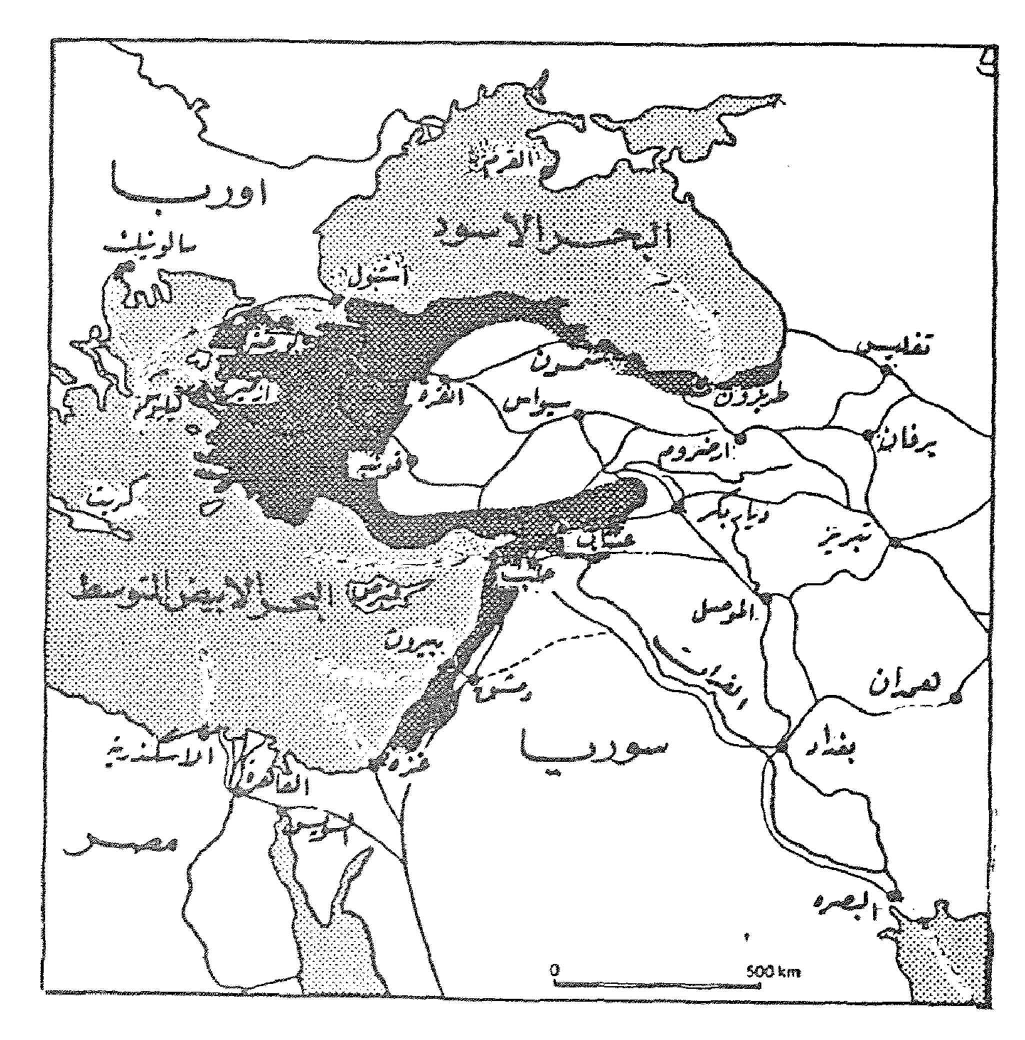


□ إمارة حلب في العهد الزنكي أيام السلطان نور الدين محمود.

أصبحت الفاجعة الأليمة الدامية بإحراق المسجد الأقصى عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م ومنبره الذي صنع في حلب مصدر هم دائم وحزن عميق لدى أصحاب الشهامة والنخوة في البلاد وكان أكثرهم تأثراً لذلك أهل حلب الذين كان المنبر الذي سبق أن صنعوه للمسجد الأقصى رمزاً لاتصالهم المباشر بالسماء وبدا لهم وكأن نصر الله في موقع المعراج سيحجب عنهم إذا لم يعيدوا الاتصال فتنادوا في حلب لإعادة صناعة منبر المسجد الأقصى رغبة منهم في أن يكون لهم شرف إعادة هذا المنبر إلى المسجد الأقصى بعد تحريره. استجاب الأمير نور الدين محمود لذلك حينما ولي أمر حلب عام ٥٤١هـ/١١٤٦، وهو الذي كان قد أعلن قبل ذلك عزمه على أن المسلمين لن يهدأ لهم بال حتى يحرروا بيت المقدس.

٣ ـ صلاح الدين يستعد:

في الوقت الذي كان فيه الزنكيون يحكمون سوريا كان صلاح الدين يوسف بن أيوب يعد العدة للتحرير عندما تولى الوزارة في مصر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩ إذ أصبح يحكم مصر فعلياً بشكل مستقل عن الزنكيين وبدأ بسعيه نحو الوحدة فدخل دمشق لكنه لم يدخل حلب إلا بعد وفاة الملك الصالح عام ٥٧٧هـ/١١٨١ وهو آخر الزنكيين. تابع صلاح الدين مخططه خلال خمسة عشر عاماً في توحيد الصف ولمّ شمل الاجزاء المتفرقة واستطاع ان يكوّن جبهة متحدة امتدت من برقة غرباً إلى الفرات شرقاً ومن الموصل وحلب شمالاً إلى النوبة واليمن جنوباً. وقد شرح صلاح الدين سياسته في رسالة بعثها إلى الخليفة العباسي المستضيء يقول فيها (ولو



□ الدولة البيزنطية وممالك الصليبيين قبل تحرير بيت المقدس.

أن أمور الحرب تصلحها الشركة لما عز علينا أن يكون هناك كثير من المشاركين ولا أساءنا أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة، فإذا صح التدبير لم يحتمل في اللقاء إلا العدة)[٣].

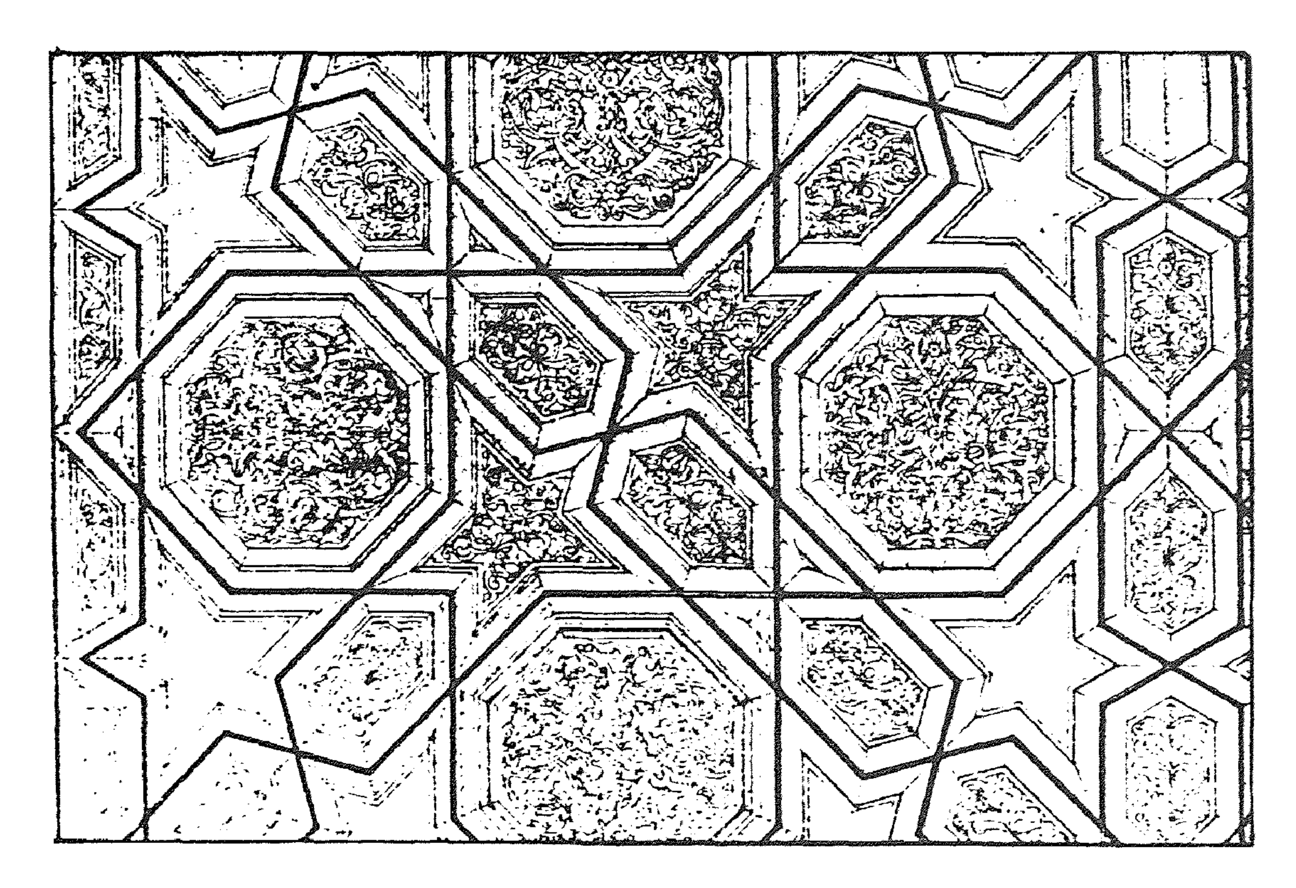
٤ ـ ويصنع المنبر:

بعد كارثة إحراق منبر المسجد الأقصى بدأ العمل بصناعة منبر جديد في حلب بشكل متقن من خشب السرو والصنوبر الحلبيين ثم طعم بالعاج والابنوس وركبت قطعه بالتعشيق والتلسين دون استعمال المسامير ثم انجز العمل عام ٥٦٤هـ/١١٦٨ وأودع المنبر الجامع الكبير بحلب، ثم صنع محراب إلى جانبه يحمل نفس النقوش والزخارف ولم يقبل نور الدين محمود بإرسال المنبر إلى المسجد الأقصى إلا بعد تحرير بيت المقدس كي يكون رمزا للتحرير ومحفزاً عليه لا هيكلاً خشبياً للخطابة.

لقد تكلم عن هذا المنبر عدة مؤرخين نترك لهم وصف هذا المنبر والأحداث التي جرت في ذلك العصر[٤].

ـ قول ابن جبير في حديثه عن رحلته الكبرى وعن مدينة حلب التي زارها يوم الأحد ١٣ ربيع الأول سنة ٥٨٠ للهجرة الموافق ٢٤ حزيران (يونيو) ١١٨٤ للميلاد وعن المنبر:

(.. وقد استفرغت الصنعة القربصية جهدها في منبره، فما أرى في بلد من البلاد منبراً على شكله وغرابة صنعته، واتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب فتجلَّلت صفحات كلها حسناً على تلك الصنعة الغريبة، وارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتى اتصل بسماك السقف وقد قُوس أعلاه وشُرف بالشرف الخشبية

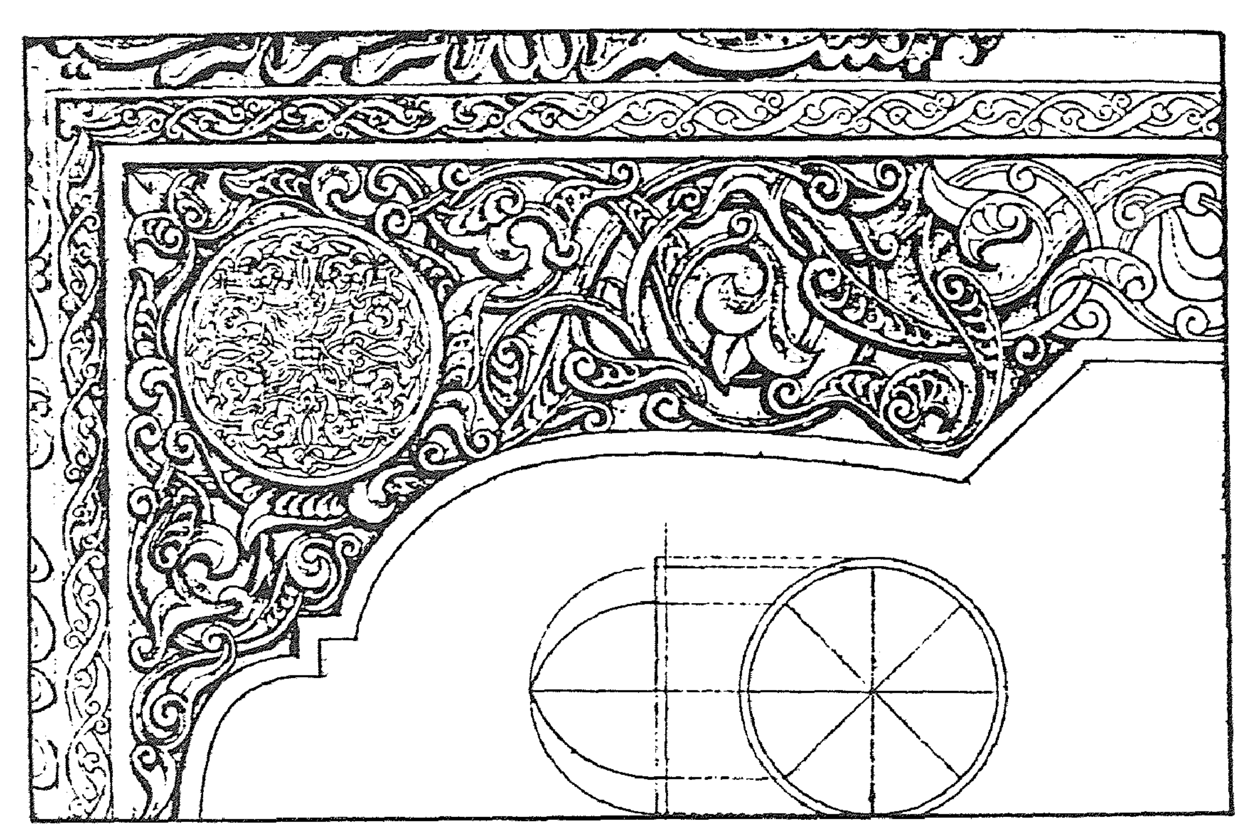


□ مجموعة زخارف متفرقة

القربصية، وهو مرصع بالعاج والابنوس واتصال الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليهما من جدار القبلة دون أن يتبين بينهما انفصال فتجتلي العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا...).

ـ جاء في حديث عماد الدين الأصفهاني عن قصة المنبر:

(فكان من حيث أحداثه ما ألهم الله نور الدين رحمه الله لارتياح خاطره اليه وانبعاثه وقد أوقع في روعه من النور الفائض من ينبوع ضلوعه أن البيت المقدس بعده سيفتح وإن صدور المسلمين الحرجة لأجله ستشرح وهو من أولياء الله الملهمين وعباده المحدثين المكرمين، وكان بحلب نجار يعرف بالاختريني من ضيعة تعرف بأخترين، لم يلفّ له في براعته وصنعته قرين، فأمر نور الدين بعمل منبر لبيت الله المقدس وقال له اجتهد أن تأتي على النعت المهندم والنحت المهندس، فجمع الصناع وأحسن الإبداع وأتمه في سنين واستحق بحق احسانه التحسين، والناس يقولون هذا أمر مستحيل وحكم ما له دليل وذكر جميل وأجر جزيل لو كان اليه سبيل. وهيهات أن يعود القدس إلى الإسلام ويقضي الإصباح فيه على الاظلام فإن الافرنج عليه مستولون مستعلون، وهم يكثرون على الأيام ولا يقلون، أما ناصفونا على أكثر أعمال حوران وقابلوا الكفر بالإيمان وقد أعجزوا ملوك الإسلام إلى اليوم فما أصعب وأتعب رقم القوم. ويقول من له قوة اليقين وعرف أن الله كافل بنصرة الدين: اصبروا، فلِسِرٍّ هذه الأمة نبأ وهو كما قال الله تعالى: «ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ». ولم يزل لنور الدين في قلبه من الدين نور وأثر تقواه للمتقين مأثور، ازهد العباد وأعبد الزهاد وهو من الأولياء الأبرار الأتقياء الأخيار وقد نظر بنور الفراسة ان الفتح قريب وأن الله لدعائه ولو بعد فتحه مجيب ويزيد قوة عزمه جداً وتمده بحياء الحياة الربانية مداً، قد طهره الله من العيب واطلعه على سر الغيب ونزهه من الريب لنقاء الجيب وشملت الإسلام بعده بركته وختمت بافتتاح ملك صلاح الدين مملكته وهو الذي رباه ولباه وأحبه وحباه وهو الذي سفى الفتح وسن



للمنبر الحلبي الثاني للمسجد الاقصى.

النجـح، واتفق أن جامـع حلب في الأيام النورية احترق فاحتيـج إلى منبر ينصب فنصب ذلك المنبر وحسن المنظر وتولى حينئذ النجار عمل المحراب على الرقم وشـابه المحـراب المنبر في الرسم).

ونص ثالث وجد في كراسه أثبتها الشيـخ راغب الطباخ باحتمال نسبتها إلى كنوز الذهب لابـي ذر.

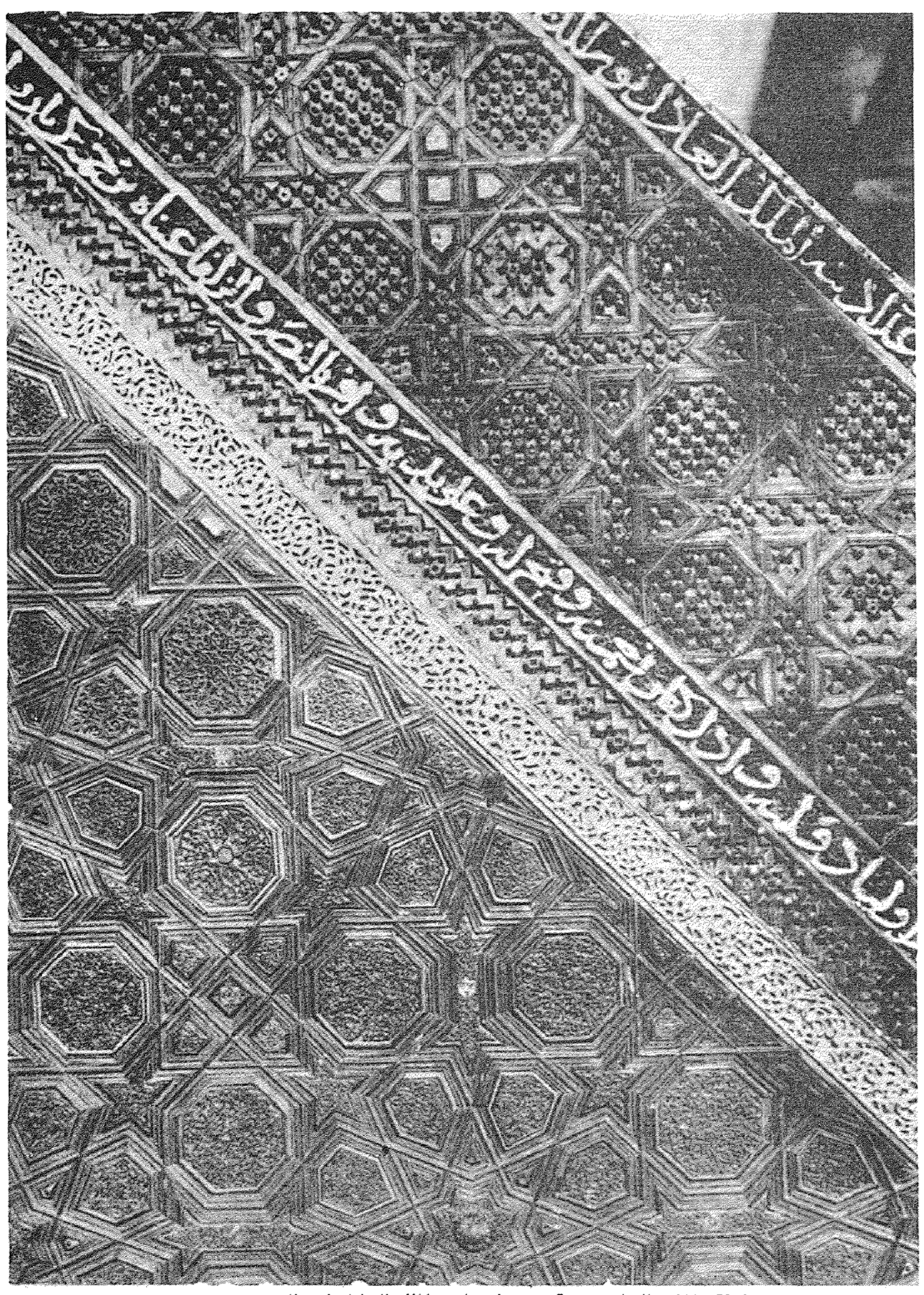
«قرأت في تاريـخ الإسلام (للذهبي) وقد كان نور الدين أنشأ منبراً برسم الأقصى قبل فتـح بيت المقدس طمعاً في أن يفتحه ولم تزل نفسه تحدثه بفتحه وكان بحلب نجار فائق الصنعة فعمل لنور الدين هذا المنبر عـلى أحسن نعت وأبدعه فاحترق جامـع حلب فنصب فيه ثم عمل النجار المذكور ويعرف بالاختريني منبراً آخر شبه المنبر».

ـــ يقول الطباخ[٥]: «كنت سمعت أن صانعه كان فلاحاً من قرية الاخترين من قرى حلب وأنه مات قبل تركيبه وعجز الناس عن تركيبه فرآه ولده في النوم فقال له عجزتم عن تركيبه؟ قال نعم فأراهم كيفية التركيب فأصبـح ولده وركبه».

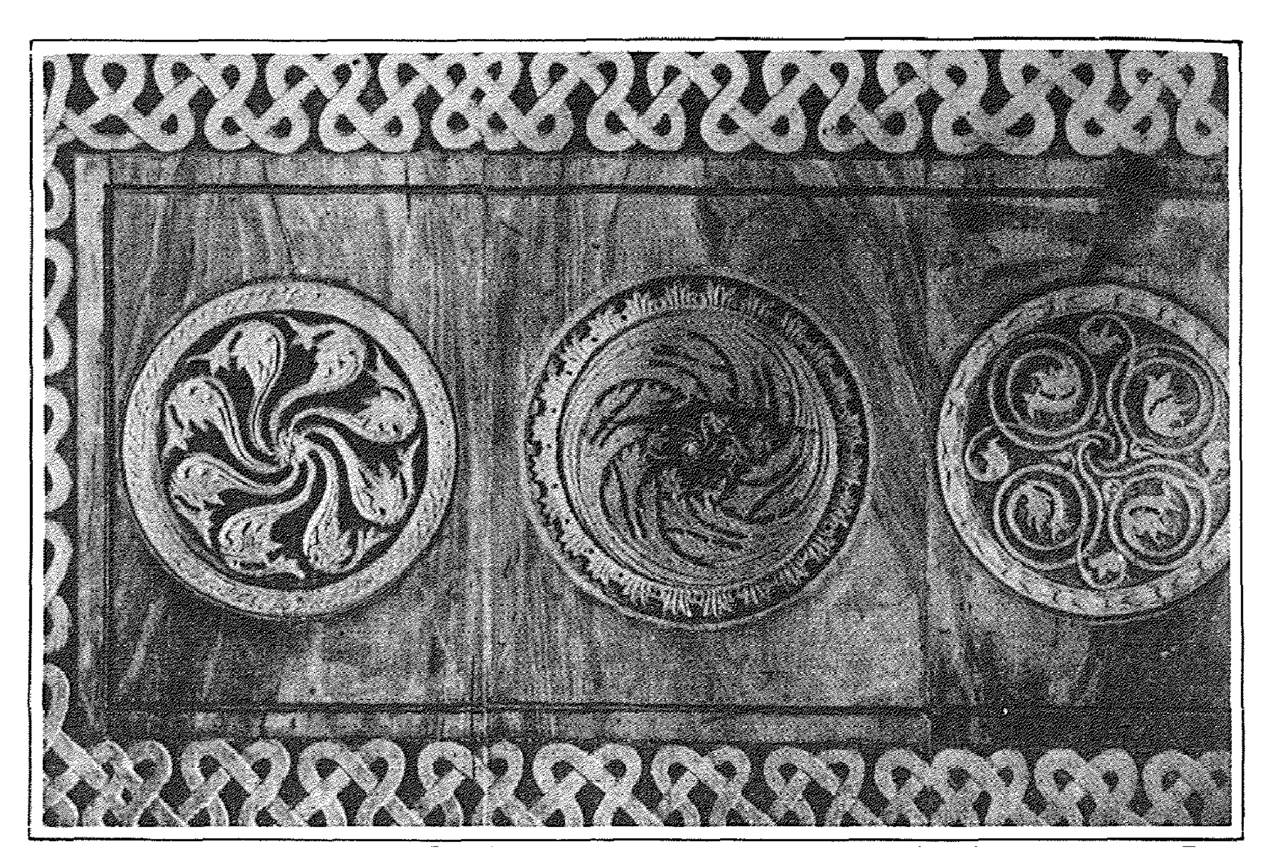
٥ ـــ المنبر الحلبي الثاني:

إن الصورة الوحيدة لمنبـر المسجد الأقصى كانت موجودة لدى (لجنة إعمار المسجد الأقصى المبارك) الأردنية بعد أن عمل المهندس الأستاذ عصام عواد الذي كان المهندس المقيم بالمسجد الأقصى والمزخرف المبدع الأستاذ جمال بدران على توثيق النماذج الهندسية للمنبر وقد عمل كلاهما بدون كلل على رسم الزخارف والنقوش الهندسية بمقياس مكبر.

كتب على المنبر الحلبـي الثاني في المسجد الأقصى (بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بعمله العبد الفقير إلى رحمته الشاكر لنعمته المجاهد في سبيله المرابط لإعلاء دينه العادل نور الدين ركن الإسلام والمسلمين منصف المظلومين من الظالمين أبو القاسم محمود بن زنكي بن أيوب ناصر أمير المؤمنين أعزّ الله أنصاره وأدام اقتداره وأعلاه منارة ونشر في الخافقين ألويته وأعلامه وأعـزّ أولياء دولته وأذل كفار نعمته وفتـح له وعلى يديه



□ تفاصيل زخرفة «المنبر الحلبي» وقد ورد ذكر اسم الملك العادل نور الدين زكي.



□ دقائق زخرفة لوح الرخام الذي يزين القسم الشمالي من المنبر.

وأقر بالنصر والزلفا عيناه برحمتك يا رب العالمين وذلك في شهور أربعة وستين وخمسماية) من الواضح هنا وجود خطئين الأول أنه ليس ابن أيوب والثاني خطأ نحوي فيجب أن يقال أقر عينيه وعلى المصراع الأيمن لبابه (عمله سلمان بن معالي رحمه الله). وعلى المصراع الأيسر (عمله حميد بن ظافر رحمه الله).

وعلى تاج المنبر وفي الجهة اليمنى وفي الأطراف الأربعة: (بسم الله الرحمن الرحيم في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال).

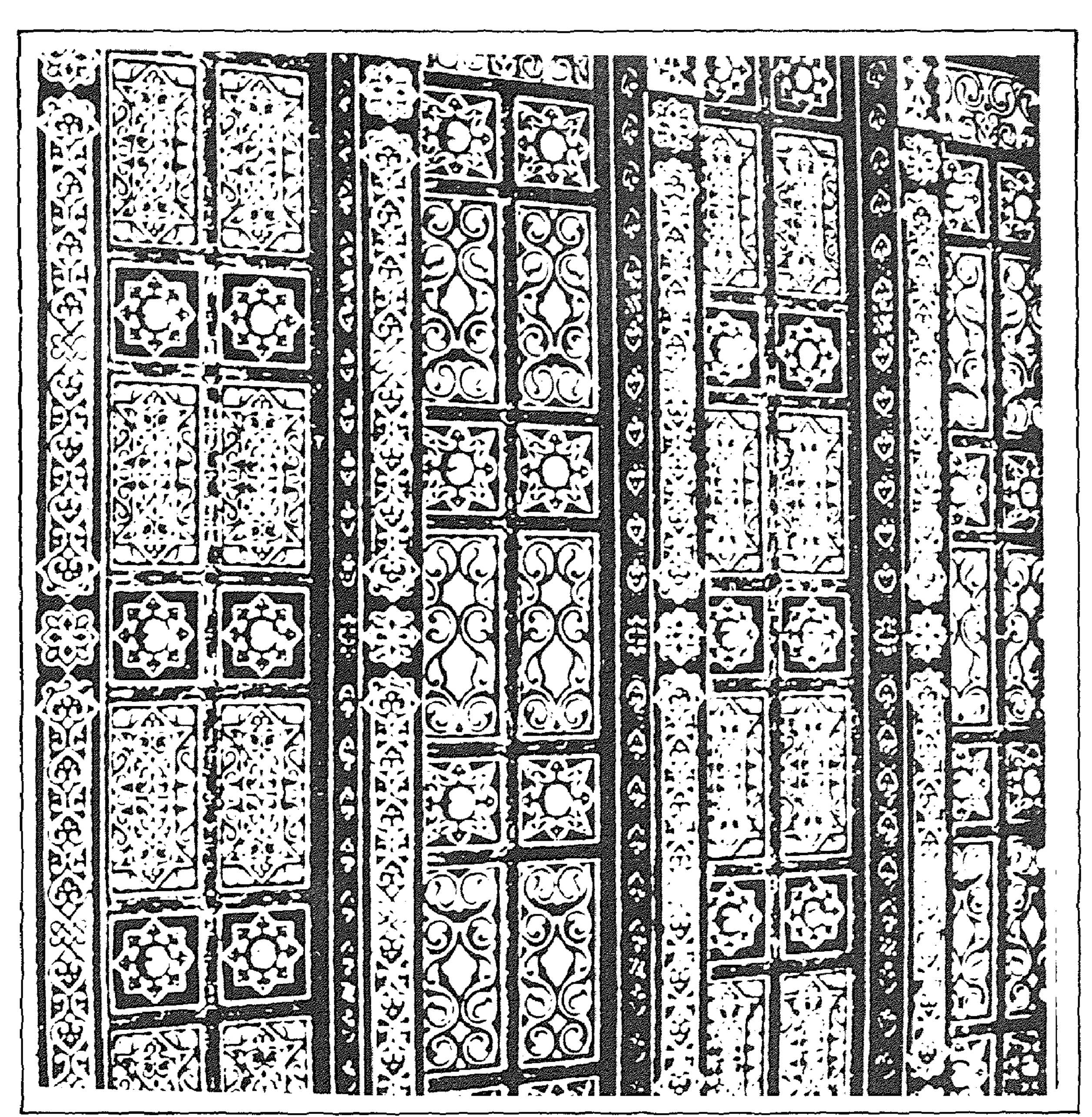
وعلى الجهة اليسرى الملاصقة للمحراب وفي الأطراف الأربعة: (بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلا الله فعسى اولئك أن يكونوا من المهتدين) وكلا النصين حول لفظ الجلالة (الله) بالخط الكوفي.

٦ ــ التحرير:

جرت المعركة الفاصلة يوم السبت في ٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ / تموز ١١٨٧ وتحقق النصر في حطين بقيادة صلاح الدين وأدى ذلك إلى كسر الصليبيين وإلى تحرير بيت المقدس. أنفذ صلاح الدين إلى ابنه الملك الظاهر في حلب يطلب اليه إرسال المنبر المصنوع في حلب فحمل إلى القدس ونصبه صلاح الدين في مصلى المسجد الأقصى مكان المنبر الحلبي الأول الذي أحرقه الصليبيون قبل ثمانية وثمانين عاماً ثم صعد اليه وتلا قول الله عز وجل: (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) الانعام ٤٥.

يقول عماد الدين الأصفهاني عن نقل المنبر:

ــ (لما فتحنا القدس أمر (أي صلاح الدين) بتعمير المحراب وترخيمه وتكميل حسنه وترميمه ووضع منبر رسمي في أول يوم قضي به الفرض. واحتيج بعد ذلك إلى منبر حسن رائع بحسنه لائق وبجماله شائق وبكمال فائق فذكر السلطان المنبر الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي رحمه الله لبيت المقدس قبل فتحه بنيف وعشرين سنة وأودعه له من ذخائره عند الله حسنه فأمر أن يكتب إلى حلب ويطلب فحمل له وعمل ما أمر به وامتثل فجاء كالروض النضير والوشي الحبير عديم النظير).

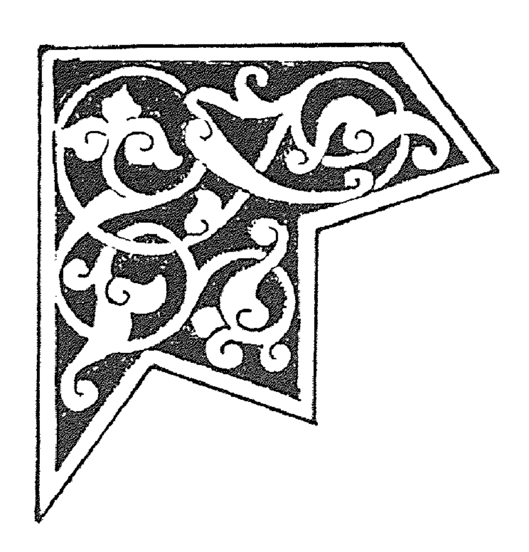


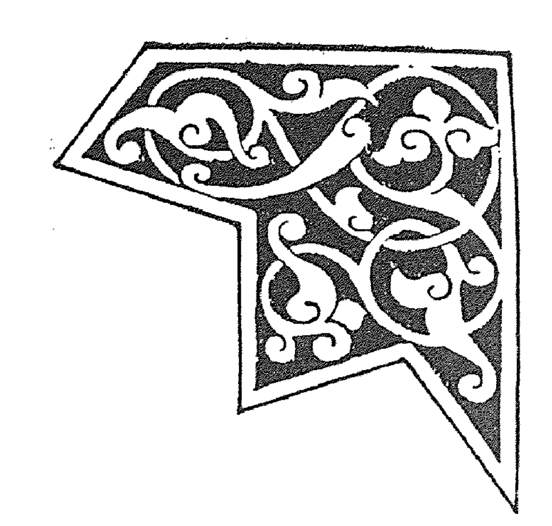
□ مجموعة زخارف متفرقة لقطع المنبر الحلبي الثاني للمسجد الأقصى.

ويقول في مكان اخر:
(ولما فتح السلطان القدس تقدم بحمله وصح به في محراب الأقصى تفريق شمله وظهر سر الكرامة في فوز الإسلام بالسلامة وتناصرت الألسن بالدعاء لنور الدين بالرحمة ولصلاح الدين بالنصرة والنعمة).

وجاء في الكامل لابن الأثير:
ــ (وصلى المسلمون فيه الجمعة (أي في المسجد الأقصى) ومعهم صلاح الدين وصلى في قبة الصخرة وكان الخطيب الإمام محيي الدين محمد بن أبي الحسن ابن الزكي قاضي دمشق ثم رتب فيه صلاح الدين خطيبا وإماما برسم الصلوات الخمس وأمر أن يعمل له منبر فقيل له أن نور الدين محموداً كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصناع بالمبالغة في تحسينه واتقانه، وقال هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس، فعمله النجارون في عدة سنين لم يعمل في الإسلام مثله، فأمر باحضاره فحمل من حلب ونصب بالقدس وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله).

وقد حرر السلطان الأشرف خليل بن قلاوون





□ تفاصيل بعض الزخارف في المنبر الحلبي الثاني.

أقوى معقل ساحلي للصليبيين في أيار (مايو) عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م مما نتج عنه تحرير كل المعاقل من أثر الصليبيين وبذلك (اختتمت حلقة من حلقات الاستعمار الأوروبي وطرد من عكا آخر جندي صليبي بعد نضال طويل وكفاح مستمر مرير بدأه عماد الدين الزنكي وشارك فيه جماعة من الأبطال المغاوير: نور الدين محمود، وصلاح الدين وبيبرس وقلاوون ثم كان التطهير على يد الأشرف خليل بن قلاوون)[٦] وقد نظم الشاعر الشهاب محمود الحلبي في ذلك الوقت قصيدة بمناسبة التحرير نذكر منها:[٧]

ما بعد عكا وقد هدت قواعدها
في البحر للشرك عند الله من أرب
لم يبق بعدها للكفر إذ خربت
في البر والبحر ما ينجي سوى الهرب
يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت
به الفتوح وما قد خط في الكتب
وأشرف المصطفى الهادي البشير على
ما أسلف الأشرف السلطان من قرب
ما بعد عكا وقد لانت عريكتها
لديك شيء تلاقيه على تعب

٧ ــ الكارثة:

كان من نتائج حرب ١٩٤٨م في فلسطين نشوء دولة صهيونية، خلفت بقيامها سلسلة من المآسي المفجعة التي حلت بالعرب لما جرى في القدس الشريف[٨] منها:

ــ إعلان القدس عاصمة لاسرائيل في ١٩٥٠/١/٢٣ ونقل البرلمان اليها وزيادة الهجرة والاستيطان اليهودي فيها بحيث أصبح عدد اليهود فيها ١٩٠ ألفا عام ١٩٦٧.

ــ احتل ما تبقى من المدينة عسكرياً في ١٩٦٧/٦/٧ واقتحم جنود المظلات الحرم الشريف بقيادة مردخاي غور الذي ردد عبر الاجهزة اللاسلكية لوحدات الجيش الغازي بعد إتمام المهمة (جبل البيت بأيدينا) وهذه العبارة تلخص الحلم الصهيوني بإقامة الهيكل على (جبل البيت) وهو الاسم الذي يطلقه اليهود على كامل الحرم القدسي.

ــ أعلن في ١٩٦٧/٦/٢٧ عن توحيد القدس واعتبارها عاصمة أبدية لإسرائيل وبدأت منذ ذلك الوقت الاجراءات الهدامة لتهويد القدس سياسياً وإدارياً وجغرافياً واقتصادياً وتعليمياً.

ــ في ١٩٦٧/٨/١٥ قام الحاخام شلومو غورين حاخام الجيش الإسرائيلي آنذاك يرافقه أكثر من عشرين من ضباط الجيش الإسرائيلي بالصلاة في ساحة الحرم الشريف بين المسجد الأقصى وقبة الصخرة وقد أشارت صحيفة «جيروزاليم بوست» حينها أن لدى الحاخام مشروعاً لإقامة كنيس يهودي في الساحة المذكورة.

ــ عقد عام ١٩٦٨ مؤتمر ديني لحاخامات اليهود في العالم وقد طالب المؤتمرون بإعادة بناء الهيكل، وقد عقب وزير الأديان الإسرائيلي حينذاك (زيراح فيرهافتغ) على الطلب بقوله (لا جدال في أن الهدف النهائي لنا هو إقامة الهيكل ولكن الأوان لم يحن بعد، وعندما يحين

الموعد لابد من حدوث زلزال يهدم الأقصى ونبني الهيكل على أنقاضه).

ـ بعد ذلك وقعت الكارثة المروعة ففي ١٩٦٩/٨/٢١ دبر المحتلون أمر إشعال النيران في المسجد الأقصى المبارك على يد الاسترالي مايكل روهان الذي نسبت اليه هذه الجريمة، ثم أطلق سراحه بحجة قصور القوى العقلية لتبرير هذا العمل الآثم. وكان من متمّمات الخطة تخاذل وتلكؤ السلطات بالاطفاء. وقد تمكن المواطنون العرب سكان القدس والمدن الفلسطينية من التغلب على الحريق بعد إحضار اطفائيات من خارج القدس، ولم يتحقق هدف العدو في تدمير المسجد الأقصى ومع ذلك استمرت محاولات الحفريات وأعمال التفجير والتخريب والاقتحام حتى اليوم من قبل العدو الإسرائيلي.

ـ أتى الحريق المفتعل والمدبر على المنبر الذي صنع في حلب وعلى سقف ثلاثة أروقة عند السطح الشرقي الجنوبي من المسجد الأقصى. ومن خلال التقارير التي وضعها المهندسون العرب الذين انتدبتهم الهيئة الإسلامية في القدس للكشف عن الحريق تبين أن حريقين منفصلين قد أحدثا عمداً أحدهما في حرم المسجد الأقصى وفي المنبر بالذات والآخر عند القسم الشرقي الجنوبي منه وكان هدف العدو أن يتصل الحريقان وتنتشر النيران لتأتي على المسجد بكامله.

تحول المنبر الحلبي الجميل الثاني كله إلى رماد على يد الهمجية الإسرائيلية بعد سبعمئة وثمانين عاماً عاشها هذا المنبر في المسجد الأقصى بسلام وعزة وكرامة.

٨ ـ المنبر الحلبي الثالث؟

بعد أن نفذ شعاع من الأمل بالتحرير إلى قلب العرب في حرب ١٩٧٣ تشكلت عام ١٩٧٥ لجنة في حلب اسمها (لجنة منبر المسجد الأقصى) ضمن جمعية العاديات بحلب اعتمدت رسمياً بمرسوم جمهوري رقم ٢٥ تاريخ ١٩٧٨/١١/١٥. كلفت اللجنة بصناعة منبر للمسجد الأقصى على الشكل الذي كان عليه المنبر الحلبي الثاني الذي صنع في عهد السلطان نور الدين محمود للمجسد الأقصى، وقد اتخذت لجنة المنبر مكتباً خاصاً في حلب تجتمع فيه مع المهندسين الحلبيين ومع الحرفيين والصناع والفنيين وبدأت بتحضير المواد الأولية والمعدات واتخاذ صالة كبيرة للصناعة، ثم أخذت في جمع المعلومات والرسوم والزخارف وهندسة المنبر الحلبي الثاني المحروق والتي وثقتها مشكورة (لجنة تعمير وإصلاح المسجد الأقصى المبارك) الأردنية.

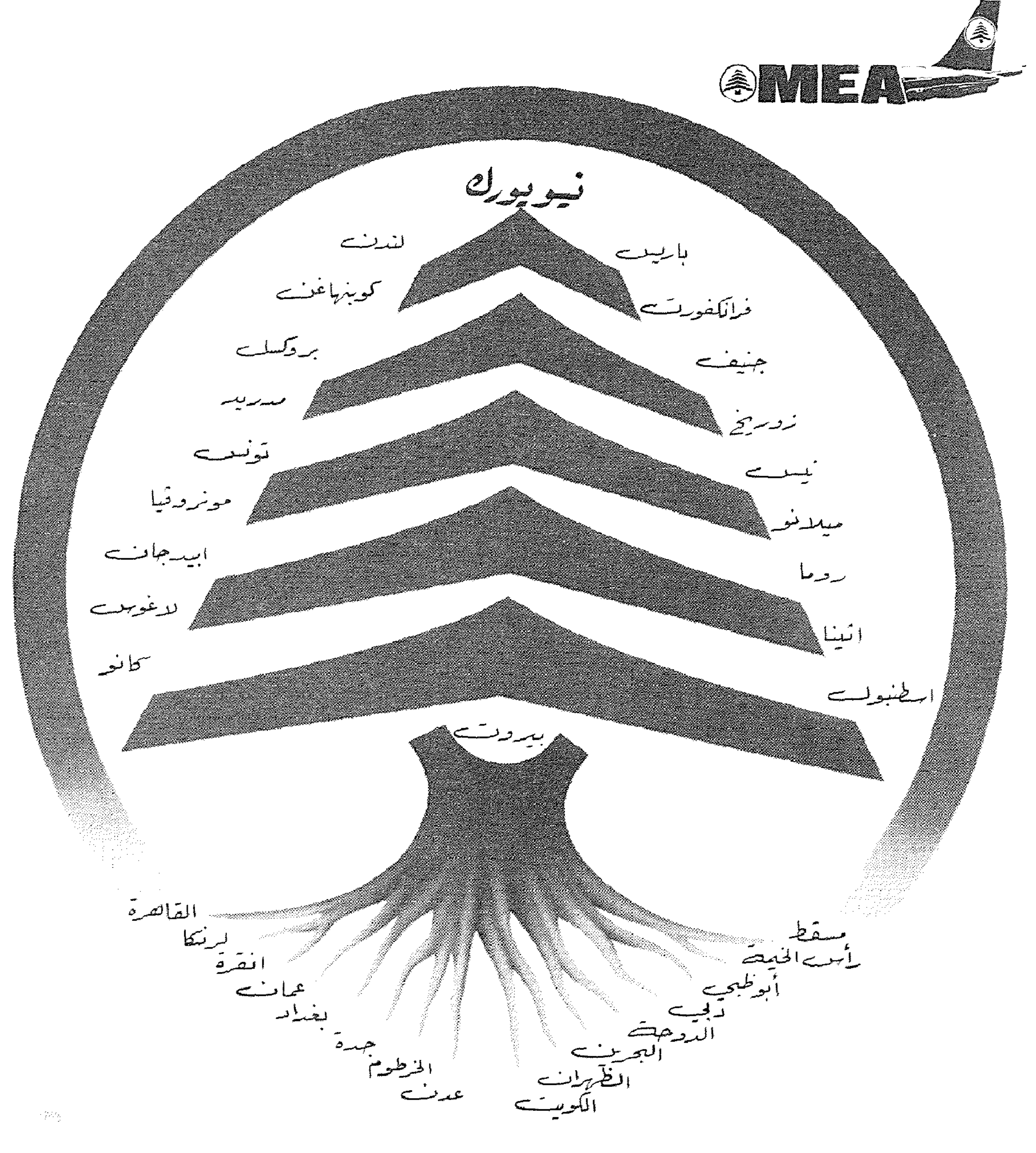
ماذا بعد ذلك؟ نترك الشاعر ليجيب[٩]:

«المسجد الأقصى شهيد جديد»
«نضيفه إلى الحساب العتيق»
«وليست النار وليس الحريق»
«سوى قناديل تضيء الطريق».

المراجع

١ ـ تاريخ الدول الإسلامية، أحمد السعيد سليمان، ج ١ ص ٢١٢، دار المعارف بمصر.
٢ ـ روح الصلاة في الإسلام، ص ٢١٤ و ٢١٥، عفيف عبد الفتاح طبارة، الطبعة ١٦، عام ١٩٨٤، دار العلم للملايين، بيروت.
٣ ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة شهاب الدين المقدسي، ج ٢ ص ٤٨، نشر دار الجيل، بيروت.
٤ ـ منبر المسجد الأقصى، سعد زغلول كواكبي، مجلة عاديات. حلب، ج ٤ و ٥، ١٩٧٨ و ١٩٧٩، ص ٣١، جامعة حلب.
٥ ـ إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، الشيخ راغب الطباخ، المطبعة العلمية، حلب ١٩٢٣.
٦ ـ تاريخ مصر الإسلامية، جمال الدين الشيال، ج ٢ ص ٢٤٠، دار المعارف بمصر ١٩٦٧.
٧ ـ الحروب الصليبية وأثرها في الشعر العربي، محمد بن علي الهرفي، ص ٩٤، النادي الأدبي، الرياض ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
٨ ـ تهويد القدس، روحي الخطيب أمانة القدس، ج ١ و ٢، ١٩٧١، مطبعة التوفيق، عمان.
٩ ـ «منشورات فدائية على جدران إسرائيل»، شعر نزار قباني، مجلة (القدس الشريف)، العدد العاشر، ص ٦٧ جمادى الأولى ١٤٠٦هـ / كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦.

موطنها لبنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جُذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا



اختطاف بن بيلا ورفاقه بداية نهاية الاستعمار في الجزائر

إعداد: ألان دوكو

ترجمة: د. رياض العالي



ضربة هائلة، سيدي السكرتير العام! خلال فترة قصيرة يعبر بن بيلا سماء الجزائر فوقنا.

كان اسم المتحدث دوكورنو، وهو كولونيل في سلاح المظلات، ومدير المكتب الحربي لوزير الجزائر روربير لاكوست. كان ذلك في الجزائر، الثاني والعشرين من تشرين الأول ١٩٥٦، بعد الثامنة والنصف صباحاً، في الوزارة نفسها. لقد أحدثت وزارة خاصة بالجزائر، خلال الحرب الفرنسية ــ الجزائرية، مركزها باريس، ولكن الوزير يقيم دائماً في الجزائر، لذلك أطلق على الوزير اسم «الوزير المقيم».

لم يكن الوزير يحضر جلسات مجلس الوزراء الأسبوعية، برئاسة روني كوتي رئيس الجمهورية، أو رئيس الوزراء غي موللي.

كان دوكورنو يزرع الغرفة ذهاباً وإياباً. وكان رئيس مكتب لاكوست الليوتنان بارني يقاسمه الشعور بالقلق. ولكنه كان يكتم ما في نفسه.

وكان ثمة شخص ثالث يجلس إلى أحد المكاتب في الغرفة ذاتها. وكان يراقب الاثنين بدهشة. إنه بيير شوساد السكرتير العام للإدارة العامة في الجزائر. كان قد وصل تواً إلى مكتبه. كان محافظ المارن. وجاء الأمر بتكليفه بمهمة في الجزائر، في شهر آب ١٩٥٦.

ألح دوكورنو:

ــ بن بلّا فوق رؤوسنا. يجب اعتقاله مع كل رفاقه.

ــ تقول بن بلا؟ مستحيل؟ كيف حدث ذلك؟

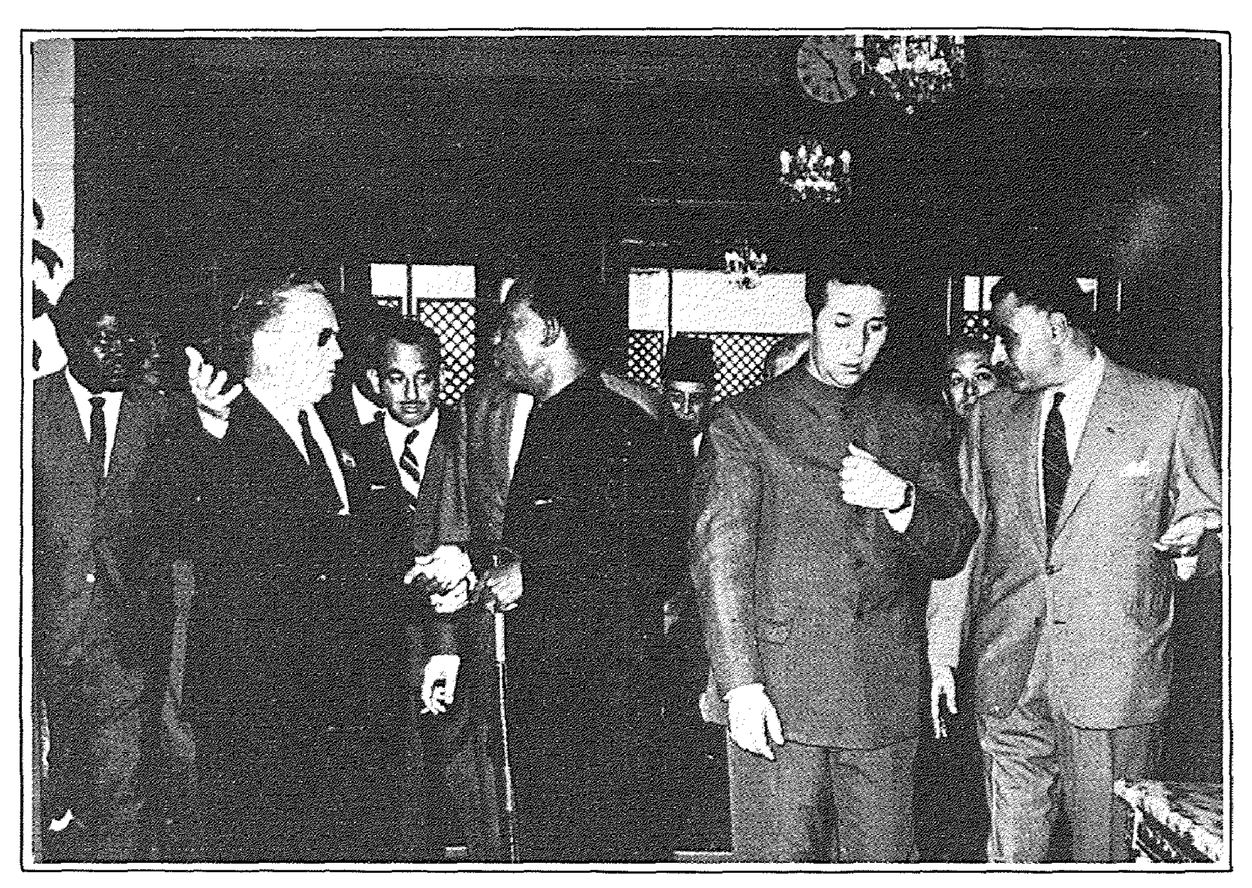
شرح دوكورنو الأمر. قال إن السلطان محمد الخامس، سلطان مراكش المستقلة حديثاً، سيطير إلى تونس ــ المستقلة كذلك حديثاً ــ فوق الأراضي الجزائرية. وسيناقشان الوضع مع قادة الثورة الجزائرية، الذين كانوا في المغرب، لدراسة القضية مع السلطان محمد الخامس. وسيطيرون معه إلى تونس.

ستقلع طائرة السلطان الساعة ١٠,٤٥، من مطار الرباط، وستطير فوق الجزائر.

علق بارني: يستحيل أن نرى هؤلاء السادة يطيرون فوق رؤوسنا.

أما شوساد فرأى ألا جدوى من التدخل. فما معنى اعتقال بن بلّا؟ ثم أن الطائرة تحمل سلطاناً، والطائرة تتمتع بحصانة. مع ذلك، اعتبر دوكورنو مرور بن بلا ورفاقه فوق الجزائر دون اعتقالهم، خيانة لأولئك المحاربين ضد ثورة فرنسا.

كان بن بلا واحداً من تسعة قادة تاريخيين قادوا ثورة الجزائر. وكان قبل ذلك سجيناً في سجن بليدا ثم استطاع الفرار من السجن،



□ صورة تاريخية جامعة، تضم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، الرئيس أحمد بن بيلا، الرئيس سوكارنو والرئيس تيتو، في مؤتمر القاهرة لدول عدم الانحياز.

والسفر إلى القاهرة. وهو أحد مؤسسي جبهة تحرير الجزائر وجيش تحرير الجزائر.

حين تسلم روبير لاكوست مركزه في شباط ١٩٥٦ في الجزائر، وجد تقارير تدعو إلى التشاؤم. فكل القادة، في كل مناطق الجزائر، كانوا يؤكدون أن الوضع يتأزم ويتدهور بسرعة. وأن الثورة «تتفاقم». وبالمقابل كان قادة الثورة يشعرون بقلة الإمكانات، سواء على صعيد التسلح، أو على صعيد التموين.

المفاوضات

كان الفريقان يشعران أن المفاوضات وحدها طريق الخلاص من المأزق. رغم التصريحات الإعلامية، التي تناقض ذلك. والواقع أن مندوبين من الفريقين التقوا سراً في القاهرة مرة، وبلغراد مرتين، وروما مرتين. وكان الوفد الفرنسي مؤلفاً من بيير كومان، أرنست كازل، وبيير هيربو. وكان الوفد الجزائري مؤلفاً من خيضر، ويزيد، وكيوان.

٣ أيلول، الساعة ١٦,١٥، قرأ على الوفد الجزائري ورقة العمل المتضمنة ما يلي:
١ ــ الحريات العامة، والحقوق الشخصية.
٢ ــ القضايا العسكرية ــ ٣ ــ القضايا الخارجية. ٤ ــ التخطيط الاقتصادي والمسائل المالية.

بل لحظ في الاجتماع مشروع خطة لبدء المفاوضات النهائية وذلك: بأن تعلن فرنسا عن موافقتها على المفاوضات، وترد الجزائر بإعلان مماثل. ويعين الجزائريون مندوبيهم، وكذلك الفرنسيون. وكان من المتوقع أن تبدأ هذه المرحلة في أوائل تشرين الثاني، حسب قول الصحفي ألبر ــ بول لانتان، الذي كان يرافق الثوار الجزائريين.

هل كان الحل مطلوباً فعلاً؟ هل كانت فرنسا تعتزم منح الجزائريين الاستقلال؟ يبدو أن الأمر لم يبلغ هذا الحد في نظر الفرنسيين. حتى السلطان محمد الخامس والرئيس بورقيبة



□ القادة الخمسة قبل الإقلاع مع ولي العهد الحسن.

كانا يعتقدان أن من المبكر منح الجزائريين الاستقلال. ولا بد من مراحل. واقترح محمد الخامس اجتماعاً رباعياً يعقد في الرباط برئاسته، يتمثل فيه الفرنسيون، والجزائريون والتونسيون والمراكشيون.

وأبدى السلطان محمد الخامس رغبته في الاجتماع إلى القادة الخمسة في الرباط. كما أن بورقيبة أبدى الرغبة في الاجتماع إليهم بحضور السلطان محمد الخامس.

بالفعل، ترك بن بلا القاهرة، إلى مدريد في ١٨/١٠/٥٦. ثم غادرها إلى تطوان حيث التقى خيضر وآية أحمد، ومحمد بوضياف، ومصطفى الأشرف، مدرس اللغة العربية في ليسيه لوي لوغران، وقد التقى خيضر في مدريد فأقنعه هذا بالسفر معه كمستشار إلى مراكش.

١٠/٢٠ طار الخمسة من تطوان إلى الرباط. المساء اجتمعوا إلى السلطان محمد الخامس، بحضور ولي العهد الحسن، ومدير البروتوكول مولاي علوي.

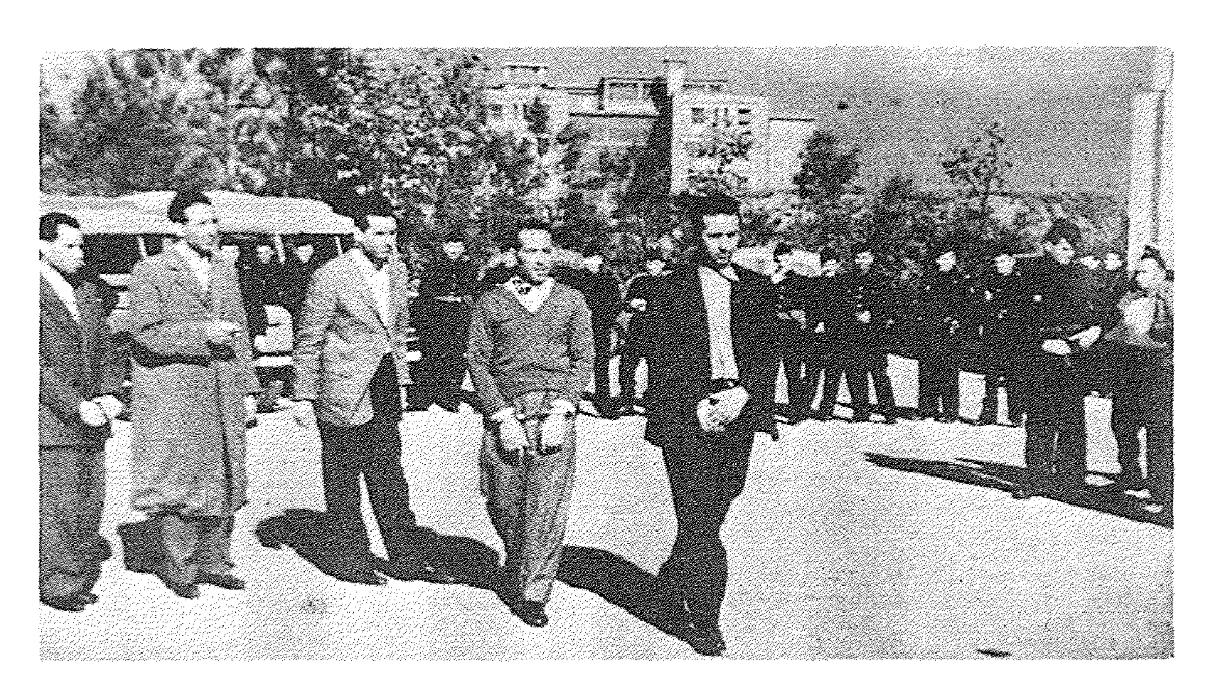
قدم ولي العهد تقريراً عن اجتماعاته في فرنسا مع مسؤولين بينهم غي موليه والجنرال دوغول. وكان غي موليه صرح له:

ــ نريد وضع حد للحرب الجزائرية، وكنا جربنا أكثر من مرة الاتصال بالقادة الجزائريين، ولكن الاتصالات لم تجد حتى اليوم.

وصرح له وزير الدفاع الوطني، موريس بورجيس مونوري بما يلي: «ستصل القضية الجزائرية إلى منعطف هام في أوائل تشرين الثاني».

والواقع أن اجتماعاً حدد وقته في روما بعد عودة وزير الدفاع من لقائه وزير الحربية البريطانية، في لندن. ولكن مونوري لم يصارح الأمير الحسن بسبب اجتماعه بالوزير البريطاني، وهو التحضير مع إسرائيل لحملة السويس.

وكان توكيد الحسن على رغبة الفرنسيين في حل قضية الجزائر، سبباً لحماسة السلطان



□ القادة الخمسة في طريقهم إلى فيلا «الزيتون». في معاصم بن بيلا وآية احمد والأشرف قيود.

محمد الخامس، لأخذ المبادرة، وتحضير الأجواء، وذلك باتصاله بقادة الجزائر، وإقناعهم بضرورة القبول بتحقيق حد معقول من المطالب.

مخاوف بن بلاّ

كان المفروض أن يكون لقاء السلطان بالقادة الجزائريين سرياً، ولكنه لم يكن كذلك، فمنذ وصولهم الرباط كانت مجموعة كبيرة من الصحفيين من جنسيات مختلفة موجودة في الرباط لنقل أخبار الاجتماع. كما أذيع بوضوح أن محمد الخامس يعد للقاء بين القادة الجزائريين وبينه وبين بورقيبة.

المساء ــ الأحد ٢١/١٠/ ــ نشر آلان سافاري البلاغ التالي: «تعرف الحكومة الفرنسية مدى الأهمية التي تعلقها حكومة المغرب على مستقبل الجزائر. ولكنها في المقابل ترى أنه من غير المناسب أن تستقبل حكومة المغرب قادة «التمرد» الجزائري استقبالاً حافلاً ورسمياً».

وختم البلاغ: «لقد قررت الحكومة الفرنسية قطع المفاوضات الحالية مع الحكومة التشريعية». حين ركب السلطان محمد الخامس الطائرة إلى تونس، لم يكن قد علم بأمر البلاغ، أو بأمر الأزمة التي نشبت بين المغرب وفرنسا.

كان الوقت قد حدد للسفر منذ ٤٨ ساعة. وكان السلطان قد دعا القادة الخمسة للسفر بطائرته إلى تونس. ولكن، فجأة، وفي صباح ٢٢، رأى السلطان أن سفر القادة معه قد يسوء فرنسا. وقد صارح بذلك الكولونيل «تويا» صديقه الحميم:

ــ إطمئن لن تزعج وسترافقني في طائرتي لأن بن بلا وصحبه سيسافرون في طائرة ثانية. وقبل السفر بساعات أنبىء القادة بالأمر، وبأن طائرة D.C3 ستقلهم إلى تونس. وقد بدا بن بلا متشائماً لذلك. ولو كان في الوقت متسع لسافر إلى مدريد ومنها إلى تونس، ولكن الوقت كان قصيراً، فاضطر للقبول على مضض.

إذا لم نفعل شيئاً فنحن عصابة ...

أما على الطرف الآخر، في الجزائر، فقد كانت قيادات الفرنسيين تجمع على ضرورة عمل ما. كان بعضهم يفكر بإسقاط طائرة بن بلا بمن فيها. وبعضهم بإنزالها مهما كان الثمن، وكانوا يقولون ذلك بصراحة، في فندق سان جورج، أو في حانة فندق أليتي.

وكان الجنرال لوريّو قائد المنطقة العسكرية العاشرة، والجنرال فراندون قائد المنطقة الجوية



□ بن بلا يستجوب بعد اعتقاله.



□ المحافظ بيير شوساد.

الخامسة، فلم يكونا مستعجلين. كان يريدان أن يعرفا رأي السلطة في ما يجب عمله.

وذهب بعض الضباط إلى حد الإعلان: «أن المدنيين إذا رفضوا إنزال الطائرة أو إسقاطها فإنهم يخونون المحاربين المقاتلين».

صباح ٢٢/١٠/ كان الكولونيل دوكورنو والليوتنان كولونيل بارني يشعران بضغط رفاقهما الشديد لعمل شيء ما. ولكن! لم يكن لاكوست في مكتبه لاستشارته. كان في مقاطعة دودوني يزور ناخبيه. لذلك اتصل دوكورنو بشوساد لأخذ رأيه. ولكن شوساد كان ضد اتخاذ أي تدبير، خاصة وأن القادة الخمسة كانوا سيطيرون مع السلطان محمد الخامس في طائرته ــ تلك كانت المعلومات حتى ذلك الوقت ــ ، لذلك كان لا بد من رأي السلطات في فرنسا.

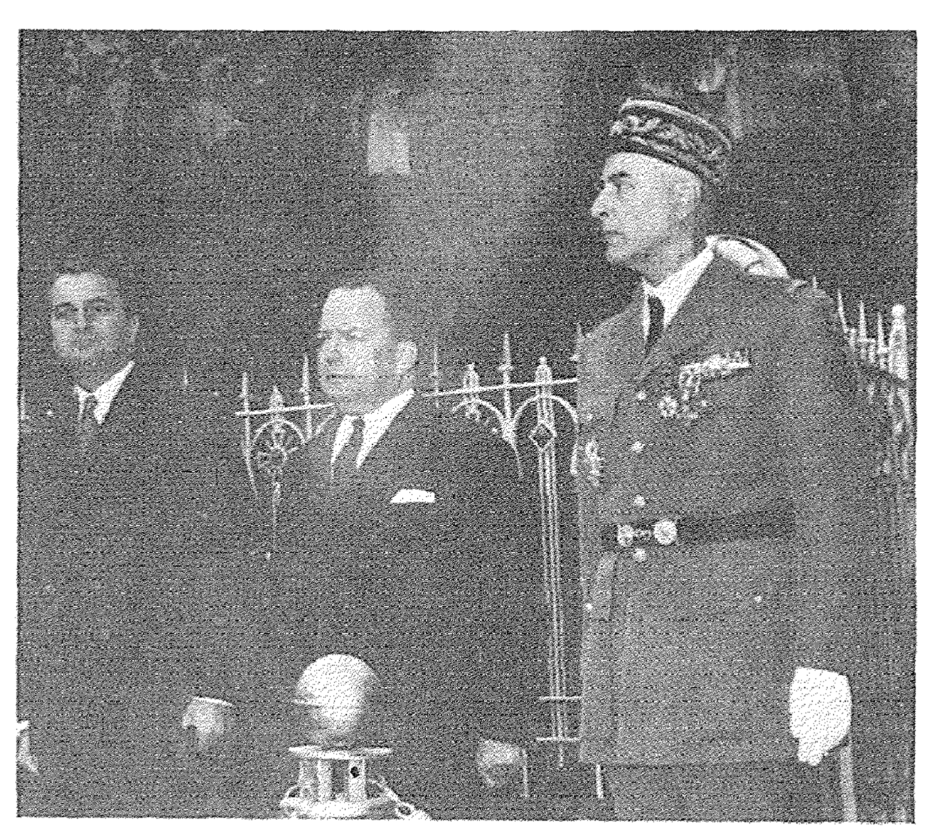
قبل ذلك ــ الساعة السابعة صباحاً ــ تلقى مدير مكتب مونوري، آبل توماس من رئاسة الأركان في الجزائر اتصالاً يقول أن طائرة السلطان محمد الخامس ستقل قادة الثورة. وقال المتحدث: هذا تحد، ولا يستطيع الجيش الصمت.

ماكس لوجون: إني «أغطيكم»

أراد توماس إعلام وزيره بالأمر، ولكن الوزير كان ترك منزله منذ الفجر، وسافر إلى لندن للاجتماع بزميله من أجل حملة السويس. ثم إن كل الوزراء كانوا تركوا باريس ذلك النهار. وكان على توماس أن يتخذ القرار بنفسه، مع أن القرار من مسؤولية وزير الجزائر، أو رئيس الوزارة. ولكن هذا كان كذلك يقوم بجولة في منطقة بادوكالي.

بدأ الشعور بإضاعة الوقت يتفاقم لدى العسكريين. توصل الجنرال لوريّو إلى الاتصال بأحد الوزراء: هو ماكس لوجون. الذي قال ساعة علم أن بن بلا سيطير فوق الجزائر: اعتقلوه، سأغطيكم. وطلب من لوريّو أن يطلعه على الأخبار أولاً بأول. وقال أنه سيبقى في مكتبه إلى المساء، وبعد ذلك في بيته.

وهنا لا بد من تعليق: «هل صحيح أن جميع الوزراء، حتى الرئيس، كانوا غائبين عن باريس؟ كان اليوم هو الاثنين ٢٢/١٠/١٩٥٦. فكيف لم يستطع كل الذين قاموا بالاتصالات العثور على رئيس الوزارة، مثلاً، أو أي وزير



□ ماكس لوجون، وروبير لاكوست، والجنرال لوريّو.

آخر، خلال فترة طويلة ــ منذ الثامنة والنصف صباحاً إلى الثامنة عشرة مساء ــ . وكيف لم يجدوا إلا ماكس لوجون، مع أن القضية خطيرة، وكان من شأنها أن تعرض العلاقات المغربية الفرنسية إلى أزمة خطيرة. من الواضح أن عملية إنزال الطائرة لم تكن لتحدث لو أن الجهاز الحكومي كان موجوداً. فكيف غاب كل الجهاز، ولماذا لم يكن ثمة إلا ماكس لوجون؟».

الكومندان غريليي وطاقمه

اتصل لوريو بفراندون وطلب أمراً خطياً بإنزال الطائرة. وجد بيير شوساد الجواب في التعميم العام التالي: اعتراض أية طائرة أجنبية تطير فوق الأراضي الجزائرية دون إذن مسبق.

حتى العاشرة لم تكن طائرة السلطان محمد الخامس قد طلبت الإذن. الحادية عشرة والنصف اتصلت السلطات في الرباط تطلب الإذن بتحليق طائرة السلطان، وحددت مسارها.

وفي الوقت ذاته وردت برقية من وكالة الأنباء المركزية تؤكد أن القادة لن يسافروا في طائرة محمد الخامس، وإنما في طائرة D.C.3. حالاً، طلبت المنطقة الجوية الخامسة عدم ملاحقة طائرة محمد الخامس، ومتابعة الطائرة الأخرى، منذ أن تحلق فوق الجزائر. وسمع صوت مضيفة الطائرة تقول:

ــ القائد غريليي وطاقمه يرحبون بكم على متن طائرتهم D.C.3 من شركة طيران أطلس. نطير على ارتفاع ٢٥٠٠ م. ستكون لنا محطة في بالما ماجورك ثم نستأنف الرحلة إلى تونس فنصلها حوالي الساعة ٢١.

كان اسم المضيفة ميشيل لامبير، وهي فرنسية مثل القبطان والميكانسيان وضابط الاستماع.

أقلعت D.C.3 وعليها عدا القادة، عدد من الصحفيين الفرنسيين: كريستيان داربور من المجلة الأسبوعية الاستقلال. إيف ديشان من الفرانس أوبسرفاتور، روني ليزي من وكالة الأنباء المركزية، والأميركي توماس برادي مراسل



□ يد الاستعمار تحاول خنق صوت الحرية أثناء حرب التحرير الجزائرية.

نيويورك تايمز.

قبل الإقلاع، قال محمد دويري وزير الأشغال العامة المغربي للقادة: ستتجنب الطائرة المياه الإقليمية الفرنسية. للطائرة محطة في جزر الباليار.

ولكن تشاؤم بن بلا لم يزل. وكان حدسه يؤكد وقوع حادث ما.

اتصل الكابتن X بكاتب المقال، وقال له أنه لا يريد التصريح باسمه، ولكنه كان مسؤولاً صباح ٢٢/١٠/٥٦ عن الملاحة الجوية في المغرب، وتتبع كل ما حدث، لحظة فلحظة، عبر الراديو. وهذه هي المعلومات التي قدمها الكابتن X.

أقلعت طائرة D.C.3 من الرباط الساعة ١٢ و٢٤ دقيقة. اتصل القائد غريليي بمركز المراقبة في الدار البيضاء، واتصل هذا بدوره بمركز المراقبة في الجزائر.

وعلم X أن القادة الجزائريين على متن الطائرة. فأنبأ بذلك قائد سلاح الجو المغربي بذلك. وطلب معلومات.

ظل على اتصال بالطائرة. وتتبع كل اتصالاتها، خاصة حين صارت فوق وهران. وطلب من القائد أن يحدد موقعه كل ست دقائق. وكان الهدف معرفة سرعة الطائرة وعلوها، حتى يكون اعتراض طائرات «ميسترال» الحربية لها في الوقت المناسب، ومفيداً.

الساعة ١٦ توقف طاقم الطائرة عن الاتصال ببرج المراقبة في أشبيلية. فجأة سمع صوت فرنسي آخر على الراديو:

— إزعم أن الطائرة أصيبت بعطل، وانزل في وهران.

كان رد القائد المندهش:

— ما هذه القصة؟

— معك خمسة يجب أن نعتقلهم.

— من يعطيني الأمر؟

— وزير الدفاع الوطني

وحدث اضطراب في قمرة القيادة.

الساعة ١٦ و٢٢ دقيقة اتصل راديو الـ D.C.3 بمكتب الكابتن X. وطلب منه نقل الرسالة العاجلة إلى الشركة: «سننزل في بالما — وقف — وردنا أمر وزارة الدفاع الوطني بالنزول في وهران — وقف — نطلب تعليمات بعد الإقلاع من بالما».

حين وصلت البرقية، كان الكابتن X على اتصال بقيادته. وحين دخل المكتب أمر بعدم نقل أي رسالة من الطائرة بدون معرفته. وأطلع رئاسة أركان الرباط على ذلك.

نزلت الطائرة في بالما. استراح القادة في المطعم، وتحلق حولهم الصحفيون. بينما بقي قائد الطائرة غريليي في قمرته.

الساعة ١٧ و١٦ دقيقة تلقى الكابتن X من الطائرة نبأ إقلاعها الساعة ١٧ و١٤ دقيقة. وطلبها تعليمات جديدة. الساعة ١٧ و١٨ دقيقة تلقى مركز المراقبة أمراً من سيغي رئيس عمليات شركة الطيران، بعودة الطائرة إلى بالما وانتظار تعليمات جديدة. ولكن الكابتن X لم يبلغ، وإن زعم أنه سيفعل ذلك بنفسه. الساعة ١٧ و٣٥ دقيقة تلقى أمر قائد طيران المغرب بإعطاء الطائرة الأمر بالنزول في الجزائر.

الساعة ١٨ أنبأت الطائرة أنها ستصل تونس الساعة ٢١ و٢٥ دقيقة. وكانت هذه البرقية أشبه بصفعة للعسكريين في الجزائر. ومنذ تلك اللحظة تولى برج المراقبة في مطار «البيت الأبيض في الجزائر» الحوار مع الطائرة.

الجزائر: ستحطون في الجزائر.

الطائرة: باسم من تتكلم؟

الجزائر: باسم الحكومة الفرنسية.

الطائرة: نطلب توضيحات.

الجزائر: باسم الحكومة الفرنسية، وبأمر السيد لاكوست وزير الجزائر.

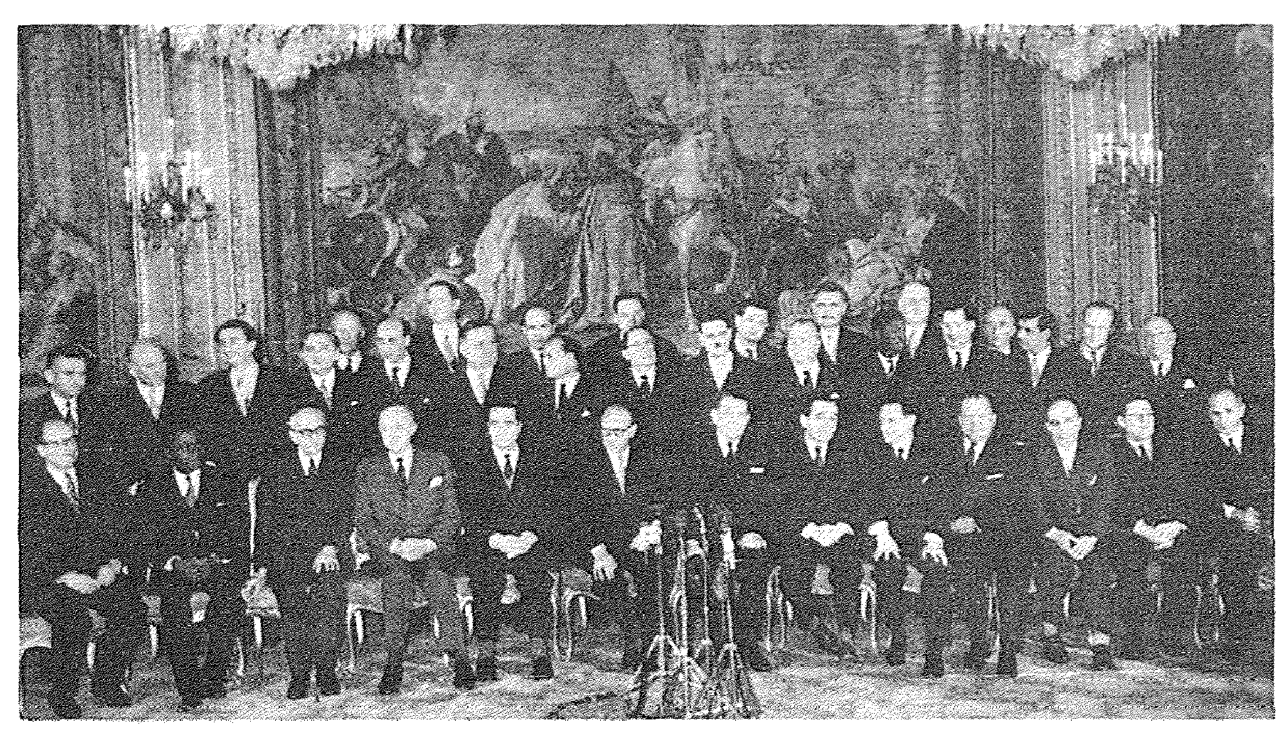
الطائرة: نحن تابعون لشركة أجنبية. وأوامركم لا تعنينا.

الجزائر: نريد العصاة.

الساعة ١٨ أعلمت الطائرة المراقبة في المغرب أنها تلقت من الجزائر الأمر التالي: «إنزلوا — وقف — الوزير المقيم يغطيكم».

الطاقم مطوق

في الوقت ذلك، بدأ الشعور في الجزائر بخسارة الموقف. لقد صمتت الطائرة ولم تعد تجيب على الاتصالات. ثم قطع الصمت الساعة



□ وزارة غي مولي ومعظمها من الاشتراكيين، إبان الثورة الجزائرية.

١٩. طلبت من الجزائر الرجوع إلى المغرب. وكان الجواب: «تعالوا إلى الجزائر. أمر السلطة أن تحطوا في الجزائر. نكرر: أعطيناكم الأمر، أعطيناكم الأمر».

الساعة ١٩ و٣٠ دقيقة طلبت الطائرة ثانية العودة إلى مراكش.

الجزائر: لا تعودوا إلى مراكش. تعالوا وحطوا في الجزائر. يغطيكم الوزير.

الطائرة: وعائلاتنا في المغرب؟

الجزائر: سنعنى بالأمر. سننقل عائلاتكم إلى محل أمين.

الطائرة: وإذا كان الثوار مسلحين.

الجزائر: تثبتوا من ذلك!

الطائرة: وإذا علموا أننا فوق الجزائر فوضعوا السلاح فوق رؤوسنا؟

الجزائر: ستقلع طائرات المطاردة وهكذا يكون لديكم العذر بالنزول في الجزائر.

يكتب روني روسيل الذي كان ذلك الوقت في مركز مراقبة الجزائر المنطقي (الطيران المدني): «أعطي الأمر للطائرة بالنزول في مطار البيت الأبيض في الجزائر. ولكن الطائرة قامت بعدة دورات حتى اطمأن قادتها إلى أن عائلاتهم أصبحت في مأمن، فقرروا النزول في مطار البيت الأبيض».

مرت طائرة مطاردة قرب D.C.3 قال القائد: لا تترددوا أيها الشجعان. وفي هذا الوقت كانت المضيفة تفتح باب القمرة وتتجول بين الركاب. سألها بن بلا، الذي كان وحده مستيقظاً: أية طريق نسلك؟

— ربما كنا نتخذ أقصر طريق.

— لن نطير فوق الجزائر؟

— لا، ولكننا اتخذنا طريقاً مباشراً.

في هذا الوقت تلقت طائرة «ميسترال» بضرب المحرك الأيمن من D.C.3 إذا حاول قائدها الانحراف بها.

في هذا الوقت تم الاتصال بروبير لاكوست الوزير المقيم. فاستهول الأمر. فقيل له:

— ما زال في الوقت متسع للسماح للطائرة بالاتجاه إلى تونس.

— ستكلفني القضية الكثير. ولكن قادة «التمرد» على الطائرة، وهم يطيرون فوق الجزائر، ولا أستطيع إلا أن أعتقلهم.

أهذه تونس

أرسل طاقم D.C.3 البرقية التالية: «كل شيء



□ بن بـيلا يوم كان في سجن بليدا.

على ما يرام. لم ينتبه القادة الجزائـريون إلى شيء. فهل اتخذتم الاحتياطات الأمنية».

ــ اتخذنا كل ما يلزم.

والواقـع أن الاحتياطات على المطار كانت شديدة. وكان فيه خمسة جنرالات بـينهم لوريو. وكان القادة الجزائريون يتطلعون من النوافذ فيرون أنواراً شديدة في المطار. سأل أحـدهم المضيفة:

ــ أهذه تونس؟

ــ نعم. وسنحط خلال ربـع ساعة.

وكانت اللوحة تشير إلى: «ضعوا الأحزمة». وجاء صوت المضيفة: «الرجاء ألا يتحرك أحد من مكانه قبل أن نبلغكم ذلك».

داخل القمرة كان كل شيء هادئاً، والبـاب مغلق، والاتصال مستمر ببرج المراقبـة. فجأة أطفئت كل الأنوار، وحطت الطائرة، وانـدفـع الجند إلى الطائرة، وفي مقدمتهم الكولونيل أندريه وبـيده الرشاش، وهو يصيـح: «إرفعوا أيديكم».

حاول بن بـيلا أخذ مسدسه، ولكن رفاقـه قالوا له: «لا تترك لهم حجة لاغتيالك» واقتيد القادة إلى فيلا «ليزوليفيـيه» ــ الزيتون ــ.

حين علم السلطان محمد الخامس ــ وكان بلـغ تـونس ــ بمـا حـدث، أتصـل بـرئيس الجمهورية الفرنسية، وقال بصوت غاضب: «كان القادة الجزائريون في حمايتي. وقد أسأتم إلى ضيافتي. تعرف معنى الروح الإسلامية. إنها قضية شرف. أقدم أبنائي عوضاً عن القادة».

صدم الرئيس الفرنسي صدمة قوية. وطرح بعض الوزراء اقتراحاً بإطلاق القادة الخمسة. ولكن رئيس الجمهورية قال: أترك الأمر لرئيس الوزراء.

ورغم أن رئيس الوزراء كان منزعجاً، فإنه قال: «آسف لتحويل طائرة بن بـيلا عن مسارها، كان ذلك عملاً غير رصين، وغير مسؤول. وكان المفروض أن تطلب موافقة الحكومة عليه. مـع ذلك، وفي الظرف الحالي، وتجاه الرأي العـام الشعبـي والبرلماني، فإننا لا نستـطيـع إطلاق سراح السجناء. فلو فعلنا ذلك لسقطت الحكومة. لقد حدث الخطأ ولكننا لا نطيق التراجـع عنه.





معاهدات الخليفة الرّاشدي عمر بن الخطاب مع أهل مدن إيرانيّة

إعداد: شذا عدره

يتميّز عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، بظهور المؤسسات الاجتماعية الكبرى «كالديوان» لدفع رواتب الجيش و «الأمصار» لتحديد قاعدات الأجناد ومدن الإسلام الكبرى ومراكز القضاة. وقد كان عهده عهد الفتوحات الإسلامية وبالتالي عهد الأمصار البعيدة التي استوجبت إبرام معاهدات مع أهاليها، كالمعاهدات مع أهل بعض المدن الإيرانية التي افتتحوها، وهي لا تخلو من توجيهات الخليفة الراشدي وسداد رأيه.

كتاب عمر إلى أمير الجيش النعمان بن مقرن
طب ص ٢٥٩٦ ـ ٢٥٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النُّعمان بن مُقرِّن:

سلام عليك؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد:

فإنه قد بلغني أنّ جُموعاً من الأعاجم كثيرةً قد جمعوا لكم بمدينة نهاوَند. فإذا أتاك كتابي هذا، فسِرْ بأمرِ الله وبعَون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين. ولا تُوطئهم وَعراً فتُؤذيهم، ولا تَمنعهم حقّاً فتُكفّرهم، ولا تُدخلنَّهم غَيضةً، فإنّ رجلاً من المسلمين أحبّ إليّ من مائة ألف دينار.

والسلام عليك.

معاهدة النعمان مع أهل ماه بهراذان
طب ص ٢٦٣٢ ـ ٢٦٣٣

أعطاهم الأمانَ على أنفسهم وأموالهم وأرضيهم. لا يُغيَّرون عن مِلّة، ولا يُحال بينهم وبين شرائعهم، ولهم المَنعة ما أدّوا الجزية في كل سنة إلى من وَليهم: على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته؛ وما أرشدوا ابنَ السبيل، وأصلحوا الطُرُق، وقَرَوا جنودَ المسلمين ممن مَرَّ بهم، فآوى إليهم يوماً وليلةً، ووفوا ونَصَحوا. فإن غشّوا وبَدّلوا فذمّتنا منهم بريئة.

شهد عبد الله بن ذي السّهمين، والقَعقاع بن عمرو، وجَرير بن عبد الله.

(وكتب في المحرم سنة تسع عشرة).

معاهدة أصفهان
طب ص ٢٦٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب من عبد الله للفاذوسفان وأهل أصبهان وحواليها:

إنكم آمنون ما أدَّيتم الجزية بقدر طاقتكم في كل سنة، تؤدُّونها إلى الذي يَلي بلادكم عن كل حالم، ودلالة المسلم، وإصلاح طريقه، وقِراه يوماً وليلةً، وحُملان الراجل إلى مرحلة، لا تسلّطوا على مسلم. وللمسلمين نُصحكم وأداء ما عليكم. ولكم الأمان ما فعلتم. فإذا غيّرتم شيئاً أو غيّره مغيِّر منكم ولم تُسلِّموه، فلا أمان لكم. ومن سبّ مُسلِماً بُلِغ منه. فإن ضربه قتلناه.

وكتب وشهد عبد الله بن قيس، وعبد الله بن وَرقاء، وعِصمة بن عبد الله.

معاهدة مع أهل طبرستان وجيلجيلان
طب ص ٢٦٥٩ ــ ٢٦٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من سُويد بن مقرِّن للفرُّخان، إصْبَهْبذ خُراسان على طبرستان، وجيل جيلان من أهل العدوّ.

إنك آمنٌ بأمان الله عزّ وجلّ، على أن تَكفّ لُصُوتَك وأهل حواشي أرضك، ولا تُـؤوي لنا بُغيةً. وتتقي من وَلي فرجَ أرضك بخمسمائة ألف درهم من دراهم أرضك. فإذا فعلت ذلك فليس لأحد منّا أن يُغِير عليك، ولا يتطرق أرضك ولا يدخُل عليك إلا بإذنك. سبيلنا عليكم بالإذن آمِنةٌ، وكذلك سبيلكم. ولا تُـؤو ن لنا بُغيةً ولا تُسِلّون لنا إلى عدوّ ولا تُغلّون. فإنْ فعلتم فلا عهد بيننا وبينكم.

شهد سواد بن قُطبة التميميّ، وهند بن عمر المُرادي، وسِماك بن مَخرمة الأسديّ، وسِماك بن عُبَيْد العبسيّ، وعُتيبة بن النّهاس البَكْريّ.

وكتب سنة ثماني عشرة.

معاهدة مع أهل آذربيجان
طب ص ٢٦٦٢

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عُتبة بن فَرقَد عاملُ عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل آذربيجان: سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها كلهم، الأمانَ على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم، على أن يُؤدّوا الجزية على قدر طاقتهم. ليس على صبي ولا امرأة ولا زمن ليس في يديه من الدنيا شيء. لهم ذلك ولِمَنْ سكن منهم، وعليهم قِرى المسلم من جنود المسلمين يوماً وليلةً، ودلالته. ومَن حُشِر منهم في سنة وُضع عنه جزاء تلك السنة. ومَن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك. ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه. ٣ ٦ ٩

وكتب جُندُب. وشهد بُكير بن عبد الله الليثيّ، وسِماك بن محرَشة الأنصاريّ.

وكتب في سنة ثماني عشرة. ١٢

(٥) وفي نسخة: ولا من ليس في يديه.

حل رموز الاختصارات المستعملة في أوائل الوثائق

الف... طرف الوجه من ورقة المخطوطة.
ب... طرف الظهر من ورقة المخطوطة.
با... سيرة ابن إسحاق (ترجمتها الفارسية).
بث... أسد الغابة لابن الأثير.
بح... الإصابة لابن حجر.
بحز... ابن حزم.
بحن... مسند أحمد بن حنبل.
بد... سنن أبي داود.
بس... طبقات ابن سعد.
بسن... سيرة ابن سيد الناس.
بط... إعلام السائلين لابن طولون.
بع... أبو عبيد.
بعب... الاستيعاب لابن عبد البر.
بعح... ابن عبد الحكم.
بعر... ابن عبد ربه.
بق... زاد المعاد لابن القيم.
بك... ابن كثير.
بلا... فتوح البلدان للبلاذري.
به... سيرة ابن هشام.
بيو... الخراج لأبي يوسف.
ديب... الديبلي.

طب... تاريخ الطبري.
عمخ... عبد المنعم خان.
قس... القسطلاني.
قلقش... القلقشندي.
ج... الجزء أو المجلد.
س... سطر.
ص... الصفحة.
ع... عدد أو رقم والمراد به عند ذكر طبقات ابن سعد مثلاً ترقيم ويلهاوزن في طبعه نخباً من هذا الكتاب وأشرنا سوى هذا إلى عدد الجزء والصفحة من الطبعة اللايدنية. أو رقم الفصل في كتاب (الأموال)، أو رقم الحديث في كنز العمال وغير ذلك.
ف... الفقرة والفصل.
+ [ ]... علامة الإضافة والمضاف.
... ... علامة الحذف في بيان اختلاف الرواية.
— ... علامة الاستمرار أو التكرار في الروايتين.
قابل... يشير إلى الروايات غير الكاملة من الوثائق أو الاقتباسات.
انظر... يشير إلى البحوث الحديثة.

آفة الكيمياء الصيادلة

● قال المأمون يوماً ليوسف الكيميائي:

ويحك يا يوسف! ليس في الكيمياء شيء!.

فقال له:

بلى يا أمير المؤمنين، وإنما آفة الكيمياء الصيادلة.

قال له المأمون:

ويحك، وكيف ذلك؟

فقال:

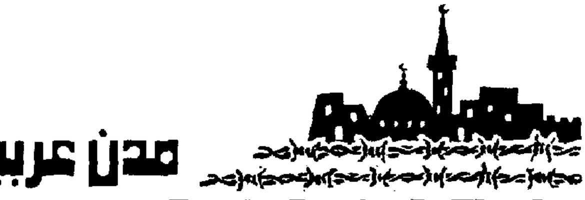
إن الصيدلاني لا يَطلبُ منه إنسانُ شيئاً من الأشياء، كان عنده أو لم يكن، إلا أخبره بأنه عنده، ودفع إليه شيئاً من الأشياء التي عنده، وقال: هذا الذي طلبت. فإن رأى أمير المؤمنين أن يضع اسماً لا يُعْرَف، ويوجّه جماعة إلى الصيادلة في طلبه ليبتاعه، فليفعل.

فقال له المأمون:

قد وضعتُ اسماً، وهو «سقطيثا».

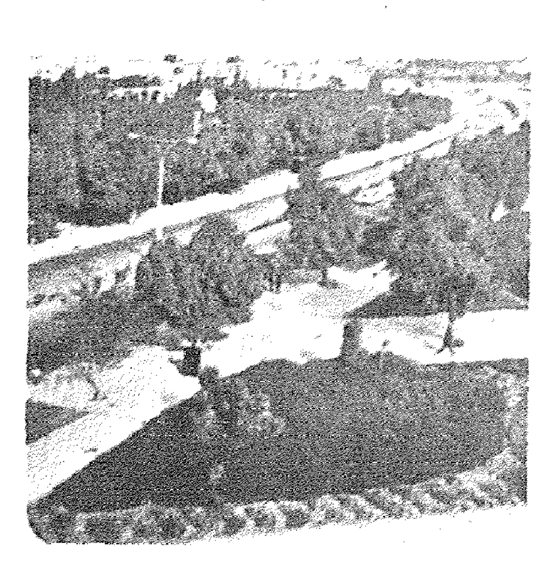
و «سقطيثا» ضيعة تقرب من مدينة السلام. ووجّه المأمون جماعة من الرّسل يسأل الصّيادلة عن «سقطيثا»، فكلهم ذكر أنه عنده، وأخذ الثمن من الرّسل، ودفع إليهم شيئاً من حانوته. فصاروا إلى المأمون بأشياء مختلفة، فمنهم من أتى ببعض البذور، ومنهم من أتى بقطعة من حجر، ومنهم من أتى بوبر!

من كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أُصَيْبِعة



بير السبع

"قسم التوثيق والأبحاث"



□ جانب من مدينة بئر السبع عاصمة النقب الشمالي.



مدينة عربية من مدن اللواء الجنوبي لفلسطين، وهي قاعدة قضاء بير السبع وعاصمة النقب.

مرت بالمدينة منذ نشأتها أحداث كثيرة، وناضل سكانها ضد الانتداب البريطاني والاستيطان الصهيوني، واشتركوا في جميع الثورات، وسقط منهم الشهداء. وقد وقفوا عام ١٩٤٨ في وجه القوات الإسرائيلية محاولين منعها من احتلال المدينة والتقدم جنوباً في النقب. لكن القوات الصهيونية تغلبت على المقاومة العربية، واحتلت بير السبع في ١٩٤٨/١٠/٢١، وطردت سكانها العرب، وأحلت مكانهم مهاجرين يهوداً.

(أ) الإطار الطبيعي لمدينة بير السبع

١ ــ **الموقع الجغرافي**: تقع مدينة بير السبع في النقب الشمالي، وتكاد تكون في منتصف المسافة بين البحر الميت شرقاً والبحر المتوسط غرباً. وهي تتوسط قاعدة المثلث الصحراوي للنقب، إذ تبعد نحو ٧٥ كم غربي البحر الميت، ونحو ٨٥ كم شرقي البحر المتوسط. اكتسب موقعها أهمية خاصة لأنه يربط بيئات ثلاث هي: البيئة الصحراوية جنوباً، والبيئة الجبلية شمالاً بشرق، والبيئة السهلية الساحلية شمالاً بغرب. ومن الطبيعي أن تلتقي في هذا الموقع منتجات هذه البيئات، وأن يصبح سوقاً رائجة يؤمها البدو والحضر على حد سواء.

وتعد بير السبع مدينة الحافة الصحراوية التي يحتم عليها موقعها الهامشي أن تستقطب أعداداً كبيرة من البدو للاستيطان فيها. كما أن موقعها جذب أعداداً من تجار الخليل وغزة للإقامة فيها. وفي هذه الحالات كلها ساعدت الطرق البرية التي تربط بير السبع بالمواقع الأخرى على استمرار الاستيطان البشري في المدينة وزيادة الحركة التجارية فيها.

وقد زادت أهمية موقع بير السبع في العصور الحديثة من الناحيتين العسكرية والاقتصادية، فالمدينة تعد بحق البوابة الجنوبية لفلسطين من جهة النقب، والبوابة الشمالية للنقب، والبوابة الشرقية لسيناء.

ففي الحروب العربية ــ الإسرائيلية التي نشبت منذ عام ١٩٤٨ كانت بير السبع بموقعها الاستراتيجي الهام محط أنظار الجيوش

المتحاربة. وقد حرص الجيش المصري عام ١٩٤٨ على السيطرة على بير السبع للتحكم في صحراء النقب، ثم تمكنت القوات الإسرائيلية من احتلال بير السبع وانطلقت منها لاحتلال النقب بأكمله. وفي حروب ١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣ كانت مدينة بير السبع قاعدة انطلاق الهجوم الإسرائيلي على قطاع غزة وسيناء وقناة السويس، لذا اهتمت (إسرائيل) بربط المدينة بجميع جهات فلسطين بمختلف طرق المواصلات.

وهكذا أصبحت بير السبع عقدة مواصلات هامة منذ عام ١٩٤٨، تربطها بجميع أجزاء فلسطين شبكة مواصلات كثيفة، فالطرق المعبدة من الدرجة الأولى تربطها بمدن االسهل الساحلي في الشمال والغرب مثل حيفا (٢٠٠كم) ويافا ــ تل أبيب (١٠٧كم) وأسدود والمجدل (عسقلان) وغزة (٦٥ كم). كما تربطها أيضاً بالمدن الجبلية في الشمال والشرق مثل الخليل والقدس (٨٥ كم) ونابلس (١٥٠كم)، وبالمدن الصحراوية في الشرق والجنوب والغرب مثل عراد وأسدوم وديمونا وإيلات والعوجاء وغيرها، وتنتهي في بير السبع السكة الحديدية التي تصلها بمحطة النعاني الواقعة على خط يافا ــ القدس الحديدي. وتمّ سنة ١٩٦٥ تمديد هذا الخط الحديدي من بير السبع إلى ديمونا، وإلى حقول الفوسفات في النقب. وقد أقيم في بير السبع مطار حربي، وفي بير السبع أكبر وأهم محطات الضخ على خط النفط بين إيلات وحيفا. وبعد عام ١٩٦٧ أصبحت بير السبع أحد الممرات الرئيسية التي يعبرها المسافرون العرب بين الضفة الغربية وقطاع غزة.

٢ ــ معالم سطح الأرض في إقليم بير السبع: يقع إقليم بير السبع في الجزء الأعلى من حوض تصريف وادي غزة الذي يتألف من أودية الشريعة والشلالة وبير السبع. وتقوم مدينة بير السبع على الضفة اليمنى (الشمالية) لوادي بير السبع فوق رقعة منبسطة من الأرض ترتفع في المتوسط نحو ٢٣٦ م عن سطح البحر. وإلى الشرق قليلاً من بير السبع بلتقي رافدا وادي بير السبع، وهما وادي الخليل ووادي المشاش القادمان من مرتفعات الخليل وعراد. وتوجد في بعض هذه الأودية الجافة ينابيع ماء أو آبار تعرف باسماء مختلفة كالعدّ والعين والمشاش وغيرها.

وإقليم بير السبع منخفض يتخذ شكل المثلث الذي توازي قاعدته شاطىء البحر المتوسط في الغرب، ويتوغل رأسه كإسفين بين مرتفعات النقب والخليل في الشرق. وتنحدر الأرض بصفة عامة من الشرق إلى الغرب، وتتجه مجاري الأودية وفقاً لهذا الانحدار في طريقها نحو البحر المتوسط. لذا تتفاوت ارتفاعات الأرض في الإقليم فتصل إلى ٥٠٠ م عن سطح البحر في الجزء الشرقي، في حين تحوم حول ٢٥٠ م بجوار مدينة السبع، وتهبط إلى ارتفاعات تراوح بين ١٠٠،٥٠ م في الجزء الغربي.

وتتوافر مقومات الخصب في تربة إقليم بير السبع التي تتألف من ترسبات من طبقات اللوس يصل ثخنها إلى ٣٠ م، لكنها تفتقر إلى المواد العضوية وإلى الرطوبة، وهذا يقلل إنتاجها الزراعي. وتؤثر الخواص الميكانيكية لهذه التربة في عملية الانجراف السطحي، وفي تكوين الأراضي الرديئة ذات السطوح الوعرة. وفي الإقليم شبكة من الأخاديد يلتقي بعضها ببعض فتكوّن أودية ذات مجار أكثر عمقاً واتساعاً.

وعندما تجف تربة اللوس خلال الصيف تنكمش وتتشقق وتتفكك ذراتها بسبب ارتفاع الحرارة. ولما كانت هذه الذرات ناعمة خفيفة فإن الرياح ترفعها وتطيّرها في زوابع ترابية معروفة في هذا الفصل. وتمتد الكثبان الرملية فوق مساحات تقدر بنحو ٥٠٠كم^2 في القسمين الغربي والجنوبي من إقليم بير السبع، أي زهاء ثلث سطح أرض الإقليم.

٣ ــ المناخ والمياه: مناخ مدينة بير السبع شبه صحراوي بصفة عامة، وهو جزء من المناخ السائد في النقب الشمالي. أما القسم الجنوبي من إقليم بير السبع فإن مناخه صحراوي قارّي متطرف، أي أنه حار صيفاً بارد شتاء. ويصل المدى الحراري في بير السبع إلى ١٥° خلال شهري أيار وحزيران، الأمر الذي يؤكد صفة تطرّف المناخ. ويراوح متوسط درجات الحرارة ما بين ١٢° في شهر كانون الثاني و٣٣،٧° في نهاية شهر آب. وأدنى درجة حرارة سجلت في بير

السبع كانت ٥١° في نهاية كانون الثاني ١٩٢٥.

تهب على بير السبع صيفاً رياح جنوبية غربية وغربية أثناء الصباح، وتتحول الرياح إلى شمالية غربية بعد الظهر، ثم تتحول إلى جنوبية شرقية أثناء الليل. أما في الشتاء فإن اتجاهات الرياح تكون غير منتظمة، وتحمل الرياح الشرقية أو الجنوبية الشرقية كميات عظيمة من الغبار. ويبلغ المعدل السنوي للرطوبة النسبية في بير السبع ٥٨ ٪، وتتفاوت المعدلات الشهرية ما بين ٤١ ٪ في نيسان و٧٣ ٪ في آيار.

بلغ متوسط كمية الأمطار السنوية بين عامي ١٩٢٠ و١٩٦٥ نحو ١٩٥ مم. وتراوحت هذه الكمية ما بين نهاية صغرى مقدارها ٤٢ مم، ونهاية عظمى مقدارها ٣٣٩ مم خلال الفترة نفسها، أي أن مدى التغير في كمية الأمطار بلغ ١٥٢ ٪، وهي نسبة مرتفعة في فلسطين. أما معامل التغير فإنه وصل إلى ٣٥. ويبلغ عدد الأيام المطيرة في بير السبع نحو ٣٣ يوماً في السنة. وتهطل نصف كمية الأمطار السنوية في شهري كانون الأول وكانون الثاني، وثلث كمية الأمطار السنوية في شهري تشرين الثاني وشباط، أي أن ٨٠ ٪ من مجموع كمية الأمطار السنوية تهطل خلال هذه الشهور الأربعة. وقد هطلت كمية أمطار مقدارها ٦٤ مم (ثلث مجموع الأمطار) خلال ٢٤ ساعة بتاريخ ١٩٣٤/١٢/٥.

ونظراً لقلة كمية الأمطار التي تهطل على إقليم بير السبع وعدم كفايتها للزراعة فإن الحاجة ماسة للمياه الجوفية إلى جانب المياه السطحية المتمثلة في فيضانات الأودية الجافة. وقد كان في بير السبع أربع آبار عامة يشرف عليها المجلس البلدي وتصل مياهها إلى البيوت. كما اشتملت المدينة على آبار أخرى يمتلك ٢٥ منها بعض المواطنين. غير أن مياه الآبار لم تكن كافية لسد حاجات السكان المتزايدة أثناء فترة الانتداب، لذا عدل الخبراء آنذاك عن فكرة حفر الآبار، وأخذوا يميلون إلى إنشاء السدود كالسد الذي تمّ تشييده في وادي أبي سمارة.

(ب) نشأة بير السبع وتطور نموها السكاني والعمراني

١ ــ **الكنعانيون**: كان الكنعانيون أول من عُرف من سكان المنطقة، والراجح أنهم أطلقوا على مدينتهم هذا الاسم لوجود سبع آبار قديمة فيها. وتشير أسفار العهد القديم إلى أنها كانت مأهولة حينما كان إبراهيم الخليل يجوب بقطعانه هذه البلاد، وأن خلافاً نشب بينه وبين أبي مالك زعيم سكان بير السبع حول بئر ماء، مما اضطر إبراهيم إلى أن يقدم سبع نعاج تعويضاً لأبي مالك، فدعي ذلك الموضع بير السبع.

انتاب بير السبع في تاريخها الموغل في القدم ما انتاب غيرها من بلاد فلسطين، وخضعت للأمم التي استولت على هذه البلاد من أشوريين وبابليين وفرس ويونان ومصريين وسواهم.

وقد أضعفت هجمات الغزاة على أرض كنعان أهلها الكنعانيين مما أدى إلى خضوعهم لقبائل عربية أخرى كالعموريين الذين امتد نفوذهم إلى تل عراد وتل الملح في قضاء بير السبع، وكانوا من ألد أعداء بني إسرائيل.

٢ ــ **في عهد الفلسطيين**: استوطن الفلسطيون جنوب فلسطين قبل قدوم بني إسرائيل إليها، وكانت بير السبع قد شهدت صراع الفلسطيين من الغرب والساميين من الجنوب والشرق، والإسرائيليين من الشمال. وكانت الحرب بين هذه الأقوام سجالاً تمكن الإسرائيليون خلالها من بسط نفوذهم على بير السبع التي كانت أقصى حدود (الدولة اليهودية) في جنوب فلسطين، وكان يقال عن حدود هذه الدولة من دان إلى بير السبع.

٣ ــ **في عهد الأنباط والرومان**: وقد ازدهرت مدينة بير السبع ومنطقتها في عهدي الأنباط والرومان حين كانت ممراً حيوياً لتجارة العالم تعبره القوافل العربية حاملة خيرات الهند وإفريقية إلى مصر وغيرها من مدن الساحل الفلسطيني، مما أدى إلى إنشاء سلسلة من المدن والمحطات التجارية مثل عبدة والعوجاء والخلصة ورحيبة وغيرها.

امتد سلطان دولة الأنباط العربية من خليج العقبة حتى حدود مصر وشواطيء البحر المتوسط. وحوالي القرن الرابع قبل الميلاد بلغ نفوذ الأنباط سيناء وجنوبي سورية والعراق،

وظلت دولتهم قائمة حتى دخلت في حوزة الرومان في عهد الامبراطور تراجان (٩٨ ـــ ١١٦م).

وكانت بير السبــع في العهد الروماني قرية كبيرة تقيم بها حامية عسكرية. وحينما انتشرت المسيحية في فلسطين جعلت بير السبــع أسقفية. وأنشأ الرومان كنائس بير السبــع وسبسطية، وأقاموا الكثير من الأبنية والإصلاحات العمرانية منها حصون الحفير وكرنب، وعبّدوا الطرق، وحفروا الصهاريــج وأقاموا السدود، وغرسوا الأشجار، واسترضوا القبائل العربية في المنطقة، وحالفوهم، ومنحوهم الألقاب والرتب لمساعدتهم في حفظ الأمن.

وقد أثرى سكان بير السبــع وما حولها لوقوع بلادهم في ملتقى طرق تجارية كان من أبرزها:

١ ـــ طريق العقبــة ـــ بـير السبــع وتمــر بالكنتلا وبير بيرين والعــوجاء والخلصــة وبير السبــع، ومنها تتجه غرباً وشمالاً إلى الخليل.

٢ ـــ طريق العقبــة ـــ عــين غضيّــان ـــ البتراء ـــ ميّة عوض ـــ عبدة ـــ الخلصة ـــ بير السبــع.

٣ ـــ طريق بير السبــع ـــ عين حصب مارة بكرنب، وتستمر الطريق من عين حصب في سيرها الجنوبــي عبر وادي عربة حتى تصل إلى ميّة عوض.

ولا ريب في أن مرور القوافل التجاريــة في منطقة بير السبــع، وما تحقق لأهلها من أرباح، وإقامة السدود والصهاريــج في البلاد، كل ذلك حفز بعض السكان على الاستقرار وإقامة المدن العابرة بالأسواق، وزراعة مختلف المزروعــات والأشجار.

وكان العرب قبــل الإسلام يــرتادون هــذه المنطقة، وقد توطنتها قبائل منهم كلخم وجذام، وكانت غزة على عهد الروم مدينة فاخرة وبقعة عامرة زاهرة تقصدها قريش في رحلة الصيف التجارية وتألف ضواحيها وخصبها، وإلى عهد قريب كانت قبائل بير السبــع تعرف بعربان غزة.

٤ ـــ في الحكم العربــي: في القرن السابــع الميلادي فتــح المسلمون فلسطين، وعرفت لديهم بير السبــع بأنها بلدة عمرو بن العاص لاتخاذه قصر عجلان في قضائها مقراً له حينما اعتزل عمل مصر في عهد عثمان بن عفان. ولا شك في أن بير السبــع كانت مدينة عامرة، ولولا ذلك ما اتخذها ـــ وهو من أعظم القادة ـــ دار إقامة. وتذكر الروايات أنه انطلق من بير السبــع ليلحق بمعــاوية بن أبــي سفيــان في خلافــة عــلي بن أبــي طالب.

وكانت بير السبــع من مدن فلسطين المعروفة عــلى عهد بني أميــة، وقيــل إن سليمــان بن عبد الملك كان يقيم بها حينما جاءته الخلافة. وذكر أن والي فلسطين سعيد بن عبد الملك الذي عرف بحسن سيرته كان نازلاً بمدينة بير السبــع عنــدما بلغتــه أخبار مقتــل الخليفــة الأمــوي الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ/ ٧٤٤م.

٥ ـــ أيام الصليبيين: تضافرت في العصور التالية عدة أسباب أضعفت شأن مدينــة بير السبــع. ومن أبرزها تحول طرق التجارة عنها، والقحط الذي عمّ قضاءها، لذلك لم تكن المدينة ذات الشأن في الحروب الصليبية، ولمّا استولى الصليبيون على بيت جبرين ظنّوها بير السبــع، ولم يتقدم هؤلاء كثيراً في جنوب فلسطين، وما إن حلّ القرن الخامس عشر الميلادي حتى كــان سكان مدينة بير السبــع قد هجروها فأصبحت خراباً ليس لها ذكر.

٦ ـــ في العهد العثماني: أعاد العثمانيون في العهــد الحديث بنــاء مــدينــة بــير السبــع (١٣١٩هـ/ ١٩٠٠م) على بعد ثلاثة أميال للغرب الجنوبــي من موقعها القديم. وهدفوا من وراء ذلك أن يثبتوا وجودهم بــالقرب من الحــدود المصرية التي كانت المفاوضات دائرة بشــأنها آنذاك، هذا إلى جانب رغبتهم في حفظ الأمن بين القبائل المتنازعة. كذلك أراد الأتراك أن تكون مدينة بير السبــع عاملاً هاماً في توطين البدو وجمــع الضرائب التي كانت تذهب هدراً قبل ذلك، فأنشأوا المدينة وجعلوها مركز قضاء بير السبــع وأتبعوا قائمقامها لمتصرفية القدس.

وقد عمدت الحكومة في سبيل تحقيق سياستها إلى شراء ما يقرب من ألف دونم ووهبتها المجلس البلدي على أن يبيــع منها من شاء التوطن من سكان المدن المجاورة، كما وهبت كل من أراد التوطن من بدو القضاء دونماً واحداً على أن يبني له سكناً يقيم فيه. ولاستكمال إدارة القضاء ألفت الحكومة مجلسين جعلت أحدهما للإدارة

والآخر للبلدية، وأنشأت دارا للحكومة وثكنة للجنود، وكلفت مهندسين رسم خريطة للمدينة وفق الطراز الهندسي الحديث، فقسمت بموجب ذلك إلى بقع متساوية يفصل بين البقعة والأخرى شارع فسيح.

ساعدت إجراءات الحكومة في نمو المدينة، وازداد عدد سكانها من أفراد القبائل وعرب المدن الأخرى، فبلغ عدد سكانها عام ١٩٠٢ نحو ٣٠٠ نسمة، وأصبح في عام ١٩١٢ نحو ٨٠٠ نسمة وفي عام ١٩١٥ نحو ألف نسمة. وقررت الحكومة إعلاءً لدرجتها جعلها مركزاً لمعاون المتصرف، ثم لم تلبث أن أعادتها قائمقامية كما كانت إثر إعلان الدستور عام ١٩٠٨.

ومن أبرز حكام قضاء بير السبع العثمانيين القائمقام آصف بك الدمشقي الذي شهدت مدينة بير السبع في عهده حركة عمرانية واسعة منها تشييد دار للبلدية اتخذت بعدئذ منزلاً للحكام، وسحب المياه من بئر النشل وتوزيعها على المدينة وأطرافها. وتمّ إنشاء جامع في غاية الإتقان الهندسي ــ حوّله الصهيونيون فيما بعد متحفاً ــ وجلبت حجارة مئذنته من خربة الخلصة. وأقيمت مدرسة ذات طبقتين لأبناء البدو، ومطحنة، وسلك للمخابرات البرقية، ودار للبريد، وغرست أعداداً كبيرة من الأشجار.

وحينما اندلعت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ــ ١٩١٨م) زاد اهتمام الأتراك بمدينة بير السبع لأهمية موقعها في جنوب البلاد فاتخذت قاعدة للجيوش العثمانية المتجهة إلى قناة السويس. وأضيف إلى المدينة كثير من الأبنية، وأنشئت مخازن محطة سكة الحديد التي ربطت بير السبع بمحطة وادي الصرار على خط حديد يافا ــ القدس، وامتدت السكة الحديدية من بير السبع إلى قلب سيناء، وعبدت الطرق بينها وبين الخليل والعوجا، وأضيئت في تلك الفترة بالكهرباء.

٧ ــ **في عهد الانتداب البريطاني**: فشلت خطط الأتراك أمام هجوم الجيش البريطاني الذي احتل بير السبع في ١٩١٧/١٠/٣١، وأقام الجيش البريطاني في هجومه على فلسطين خطّاً حديدياً يربط بير السبع برفح، لكنه لم يلبث أن نزع سنة ١٩٢٧. وكان الخط الحديدي بين بير السبع ومحطة وادي الصرار قد نزع قبل ذلك.

وقد اتسعت المدينة في عهد الانتداب، وبلغ عدد سكانها وفقاً لتعداد عام ١٩٢٢ نحو ٢,٣٥٦ نسمة، ووصل عددهم في تعداد ١٩٣١ إلى ٢,٩٥٩ نسمة. وقدر عدد سكان المدينة في عام ١٩٤٥ بنحو ٥,٥٧٠ نسمة، ونقص عددهم في عام ١٩٤٨ إلى ٢٠٠ نسمة نتيجة لتهجير معظم سكان المدينة منها إثر الحرب العربية ــ الاسرائيلية

بلغت مساحة المدينة في أواخر عهد الانتداب البريطاني نحو ٣,٨٩٠ دونماً، أي ما يقرب من ٤ كم[٢]. وقد اشتملت معظم هذه المساحة على مبان سكنية، وعلى وسط المدينة التجاري (قلب المدينة) وما فيه من أسواق ومحاكم للعشائر ومحكمة للصلح ودار للبلدية وناد للموظفين ومستشفى ومستوصف ومدرستين ابتدائيتين للذكور والإناث، وضمت أيضاً مسجدين وكنيستين.

٨ ــ **في ظل الاحتلال الإسرائيلي**: كان يوم ١٩٤٨/١٠/٢١ يوم أسود في تاريخ بير السبع، إذ تمكن الصهيونيون من احتلال المدينة وطرد سكانها العرب منها وإحلال مهاجرين صهيونيين محلهم. وقد سكن المهاجرون الأوائل في البيوت العربية المهجورة. وبلغ عدد سكان المدينة في نهاية عام ١٩٤٩ نحو ١,٨٠٠ نسمة، وما لبث العدد أن ازداد بسرعة في نهاية عام ١٩٥٠ إلى ٨,٣٠٠ نسمة، ووصل في عام ١٩٥٦ إلى ٢٥,٥٠٠ نسمة، وإلى ٤٣,٥١٦ نسمة عام ١٩٦١، وإلى ٧٤,٥٠٠ نسمة عام ١٩٦٩ وإلى ٩٠,٤٠٠ نسمة عام ١٩٧٣.

ومن الطبيعي أن تتوسع بير السبع وتمتد في نموها العمراني أفقياً وعمودياً لنمو عدد سكانها السريع. فتضاعفت مساحة أراضي المدينة بعد أن أنشئت ضواح كبيرة تمتد من الشمال والشمال الغربي، وبلغت هذه المساحة نحو ٤٨,٠٠٠ دونم في عام ١٩٦٧. وأصبحت المدينة القديمة كجزيرة في وسط هذه المدينة الجديدة. وأنشئت منطقة صناعية امتدت نحو الشرق، وشيدت العمارات السكنية ذات الطبقات الكثيرة لمواجهة الطلب المتزايد للمساكن. ويمكن القول



إن المخطط الهيكلي لمدينة بير السبع يتخذ شكل المستطيل، وتتعامد معظم شوارع المدينة في خطوط مستقيمة تحف بها أشجار الزينة من الجانبين. وتوجد الأحياء الغنية ذات البيوت العصرية في الجهتين الشمالية والشمالية الغربية من المدينة، أي على طول محاور الطرق الرئيسة المؤدية إلى الفالوجة شمالاً، وإلى غزة شمالاً بغرب.

(جـ) التركيب الوظيفي لبير السبع

١ ـ **الوظيفة التجارية**: كانت بير السبع محطة للقوافل التجارية في العصور القديمة، وبخاصة في عهدي الأنباط والرومان. وازدهرت الحركة التجارية فيها خلال العصر الأموي. وفي مطلع القرن الحالي استقرّ فيها عدد من التجار العرب من المدن والقرى المجاورة في إقليمي السهول الساحلية والمرتفعات الجبلية، وبلغ عدد الحوانيت فيها آنذاك نحو ١٥ دكاناً. وفي فترة الانتداب اهتمت بلدية بير السبع بإنشاء الوسط التجاري في قلب المدينة فشيدت المحلات التجارية على طول جانبي الشارع الرئيسي فيها. وقد اعتاد أبناء العشائر المحيطة بالمدينة أن يؤموا أسواق بير السبع يومياً ليبيعوا مواشيهم ومنتجاتها المختلفة من شعر وأصواف وجلود ولحوم وألبان، ويشتروا ما يلزمهم من حبوب وسكر وأرز وشاي وأقمشة وملبوسات وعباءات وأدوات زراعية.

وبالإضافة إلى وسط المدينة التجاري كانت تقام كل إثنين سوق عظيمة في الطرف الشرقي من بير السبع يقصدها البدو من جميع أنحاء القضاء. وقد أطلق على هذه السوق اسم سوق الحلال نسبة إلى المواشي المعروضة فيها. وتعد بير السبع أهم مراكز تجميع الشعير في فلسطين وإعداده للتصدير إلى بريطانيا عن طريق ميناء غزة.

٢ ـ **الوظيفة الزراعية والرعوية**: كان البدو الذين استقروا في المدينة في مطلع هذا القرن يمارسون الزراعة إلى جانب تربية المواشي. وتكاد الزراعة تنحصر في المحاصيل الحقلية كالشعير، وهو أهم المحاصيل، والقمح والذرة



والعدس والفول والكرسنّة. وفي السنوات الأخيرة من فترة الانتداب البريطاني زرعت أشجار الفاكهة في مئات الدونمات حول بير السبع كالعنب والتفاح والمشمش واللوز والتين والرمان والبرتقال والبطيخ، كذلك زرعت بعض أصناف الخضر كالبندورة والبامية والقثائيات.

واعتمد جزء من السكان في معيشتهم على الرعي وتربية المواشي. وأهم المواشي الإبل التي استخدمت في حراثة الأرض ونقل المحاصيل الزراعية والمتاع، وبلغ عددها في قضاء بير السبع عام ١٩٤٣ نحو ١٣,٧٨٤ رأساً، وبلغ عدد الماعز والغنم في السنة نفسها نحو ٧٠ ألف رأس وعدد البقر نحو ١٠ آلاف رأس. هذا عدا الطيور الداجنة التي تربى في البيوت كالدجاج (٥١,٢٠٠) والبط والأوز والديوك الرومية (٥٥٠). وكانت المواشي تعتمد في غذائها على المراعي الطبيعية المتوافرة في الإقليم علاوة على المزروعات العلفية.

٣ ــ الوظيفة الصناعية: اقتصرت صناعات مدينة بير السبع على الصناعات التقليدية الخفيفة كالصناعات الغذائية والنسيجية (رَ: النسيج، صناعة، والمواد الغذائية). وأهم هذه الصناعات طحن الحبوب (الدقيق)، والخبز، والحلويات، والسمن، والجبن، والغزل، ونسج بيوت الشعر والعباءات من شعر الماعز، والأصواف، ودباغة الجلود، والمنتجات الجلدية، والحدادة، والتجارة، والأدوات الزراعية والمنزلية البسيطة.

وأهم صناعات بير السبع بعد عام ١٩٤٨ السيراميك، والأدوات الصحية، والطوب، والمبيدات الحشرية، والكيميائيات، والبروميد، والمنسوجات، وطحن الحبوب، ومواد البناء، والألماس، والصناعات المعدنية. ولا تزال بير السبع مركزاً تسويقياً هاماً للبدو والمقيمين حولها وفي إقليمها، وكذلك لسكان بعض المستعمرات اليهودية في النقب الشمالي.

٤ ــ الوظيفة التعليمية والثقافية: كان في بير السبع مدرستان للحكومة أثناء فترة الانتداب، الأولى للبنين والثانية للإناث. وهناك روضة أطفال تدير شؤونها لجنة خاصة من

الأهالي. وتستقبل هذه المدارس إلى جانب أبناء المدينة أبناء العشائر بعد أن ينهوا المرحلة الابتدائية في مدرسة عشيرتهم. وقد بلغ مجموع التلاميذ الملتحقين بمدرسة ذكور بير السبع الثانوية عام ١٩٤٧/١٩٤٨ ـ ٥٨٠ طالباً يعلمهم ١٧ معلماً. وقد اشتملت المدرسة على حديقة مساحتها ٧ دونمات لتدريب التلاميذ على الأعمال الزراعية، كذلك شيدت في المدرسة غرفة خاصة للأعمال اليدوية والنجارة، وكان يتبعها منزل خصص لإقامة التلاميذ البدو كان فيه ١٠٠ تلميذ في العام الدراسي ١٩٤٧/٤٦. وضمت المدرسة مكتبة بلغ عدد ما فيها من الكتب عام ١٩٤٧ نحو ١,٤٥٥ كتاباً في مختلف العلوم والفنون.

ومدرسة الإناث ابتدائية كاملة تأسست في بداية عهد الانتداب وضمت ٣٠٠ تلميذة في العام الدراسي ١٩٤٨/٤٧ تعلمهن ٩ معلمات، وضمت مكتبة فيها ٦٥١ كتاباً. أما روضة الأطفال فإنها ضمت في العام الدراسي نفسه ٩٠ طفلاً وطفلة تعلمهم معلمتان.

وتجدر الإشارة إلى أن رغبة قبائل بير السبع في تعليم أبنائها كانت كبيرة جداً، وكانت المدارس تعجز عن استيعاب كثير من المتقدمين إليها، وبلغ ما أنفقته بلدية بير السبع وسكانها على مدرستي مدينتهم في العام الدراسي ١٩٤٧/٤٦ نحو ٤,٣٠٦ ج. ف منها ٣,٦٦٩ ج. ف تكاليف إقامة الأبنية الجديدة.

وتضم المدينة اليوم عدداً من المدارس والمعاهد العلمية كمعهد النقب للبحوث والدراسات المتعلقة بالمنطقة الجافة الذي يجري تجارب على طرق تحلية المياه المالحة، وعلى طرق الاستفادة من استغلال الطاقة الشمسية والمطر الاصطناعي وتكييف النباتات مع ظروف الجفاف. وهناك معهد بيولوجي لدراسة حياة النباتات في الصحراء علاوة على جامعة النقب التي افتتحت عام ١٩٧٠. وفي بير السبع متحف تابع للبلدية. ●

المراجع

- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، القاهرة ١٩٧٠.
- عارف العارف: تاريخ بير السبع وقبائلها، القدس ١٩٣٤.
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت ١٩٥٧.
- محمد النحال: جغرافية فلسطين، بيروت ١٩٦٦.
- مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، ج ١، ق ٢، بيروت ١٩٦٦.
- أحمد أبو خوصة: بير السبع والحياة البدوية، عمان ١٩٧٩.

★ ★ ★

ولي وطن آليت أن لا أبيعه ... وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب منعما ... بصحبة قوم أصبحوا في ظلالكا
وحبب أوطان الرجال إليهم ... مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم ... عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
فقد ألفته النفس حتى كأنه ... لها جسد إن بان غودر هالكا

«ابن الرومي»

أحب بلاد الله ما بين منبج ... إلي وسلمى أن يصوب سحابها
بلاد بها نيطت علي تمائمي ... وأول أرض مس جلدي ترابها

«؟» عربي

وطني لو شغلت في الخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي

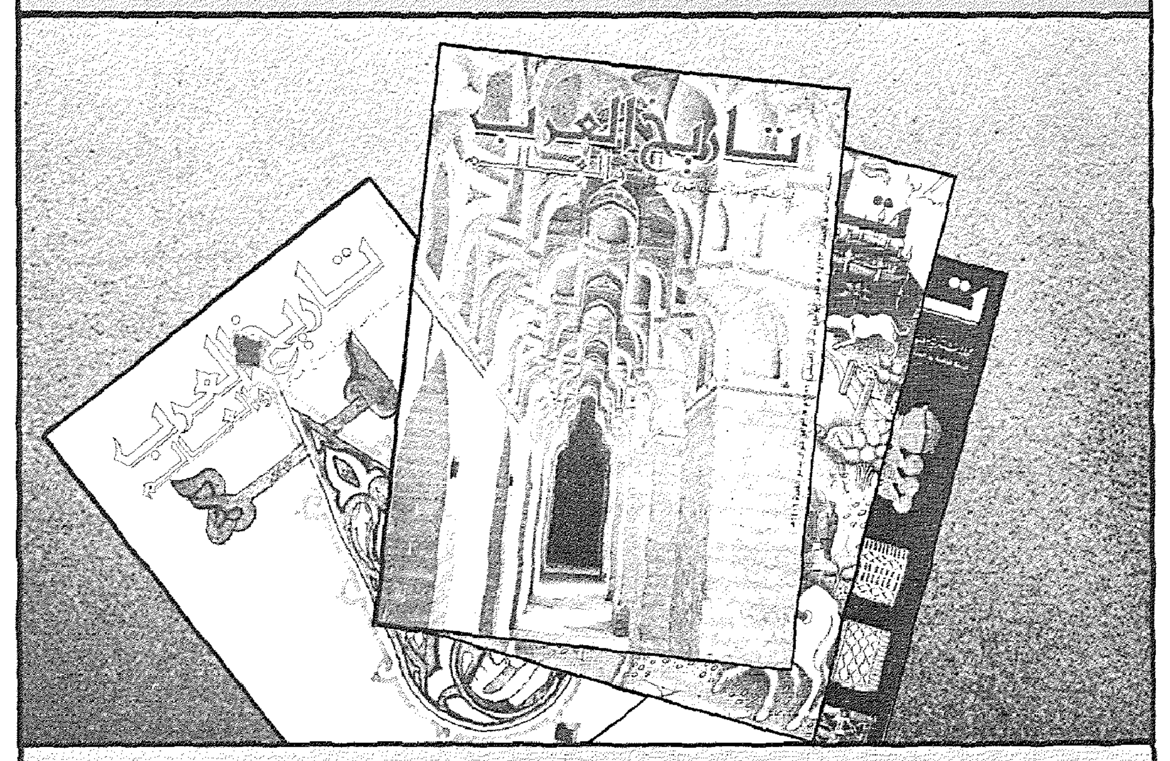
«شوقي»

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير



الاشتراكات

- في لبنان .... ١٥ دولار
- للأفراد في الوطن العربي .... ٣٥ دولاراً
- للأفراد في دول العالم الأخرى ...... ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في الوطن العربي .... ٧٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية خارج الوطن العربي .... ١٠٠ دولار

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

بناية ابو هليل - شارع السادات - بيروت - لبنان - ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣



تقرير لوكالة «رويتر» من جباليا

الفلسطينيون ما زالوا يقاتلون

● أوردت وكالة «رويتر» من مخيم جباليا في قطاع غزة المحتل، بمناسبة مرور عام على اندلاع الانتفاضة، اشارت فيه إلى ارتفاع معنويات المواطنين الفلسطينيين، وبينت كيف أصبحت الانتفاضة جزءاً أساسياً من حياتهم اليومية.

وفي ما يأتي مقتطفات من التقرير: فقدت مريم أبو طاقية (٦٠ سنة) إبنها خالد في الانتفاضة التي اكتسحت الضفة الغربية وقطاع غزة طوال العام.

ولكن مثلها مثل ٦٠ ألف مقيم في مخيم جباليا الذي يسوده البؤس ويتكون من متاهة من ملاجىء مكدسة بالبشر وبالوعات مفتوحة وطرق متربة ترتفع فيها أكوام القمامة تصر هذه السيدة العجوز على القتال حتى إنتهاء الاحتلال.

وتسأل زائراً قائلة «أتظن أننا سنسمح لهم بأخذ أبنائنا من أحضاننا ونشاهدهم ينهالون عليهم ضرباً دون أية جريرة».

وقد مات خالد أبو طاقية وهو في الثانية والعشرين وهو واحد من أوائل شهداء الانتفاضة وكانت زوجته حاملا في الشهر الثامن في طفلهما الثالث.

ومثل معظم اللاجئين الذكور من سكان غزة كان أبو طاقية يذهب إلى العمل في إسرائيل ليقود جرافة في أحد مواقع التشييد في مدينة «كيريات ملاخي» الجديدة التي يعرفها الغزاويون بإسمها العربي قسطينة.

وفي ١٥ كانون الأول ١٩٨٧ اطلق عليه جندي إسرائيلي رصاصة في رأسه وهو يلتقط حجراً أثناء مظاهرة عنيفة عند مضخة الماء في جباليا.

وكانت الانتفاضة قد بدأت في الأسبوع السابق في فجر التاسع من الشهر نفسه عندما هاجم آلاف من اللاجئين في جباليا نقطة إسرائيلية عسكرية صغيرة في وسط المخيم بالحجارة والزجاجات احتجاجاً على مقتل أربعة فلسطينيين في حادث تصادم سيارة مع شاحنة للجيش الإسرائيلي.

وفتح الجنود النار وقتلوا فلسطينياً واحداً وجرحوا ١٩ وانتشرت الثورة سريعاً.

وخلال أيام تأجج قطاع غزة حيث يعيش ٦٥٠ الف فلسطيني بإطارات السيارات المشتعلة ضمن حواجز في الطرق يديرها شباب فلسطيني من رماة الحجارة.

وقد امتلأت الجدران بالشعارات والأعلام الفلسطينية الممنوعة.

وخالد ثالث إبن لمريم يموت من أجل القضية الفلسطينية.

الأبن الأول مات وهو يحمل رشاشاً في حرب ١٩٦٧ عندما استولت إسرائيل على قطاع غزة من مصر. والثاني نسفته قنبلة كان يعدها في العام ١٩٧٣ لمجموعة فلسطينية فدائية.

ويقول بقية أعضاء العائلة أنهم على استعداد للبقاء في قطاع غزة في ظل دولة فلسطينية ويوقنون انهم لن يستطيعوا العودة إلى قريتهم العربية بالقرب من تل أبيب والتي محيت من الخريطة في الحرب العربية ــ الإسرائيلية الأولى العام ١٩٤٨.

ولإطعام ٢٦ فرداً من العائلة يتكدسون في ملجأ سقفه من «الاسبستوس» ويتكون من سبعة غرف يعمل ثلاثة شبان منهم في تل أبيب كعمال لدى شركة نقل.

وقال فتحي ديب أبو سلطان خالد خالد «يفضل اليهود تشغيلهم لأنهم يتقاضون أجراً أقل يعادل عشر ما يتقاضاه العمال اليهود».



وأضاف قائلاً «أحياناً يكسبون من ٥٠ إلى ٦٠ دولاراً في اليوم. وفي اليوم السيء لا يجلبون شيئاً».

ويغادر الثلاثة المنزل بمجرد انتهاء حظر التجوال الليلي في غزة الساعة الثالثة صباحاً ليسبقوا عمال يسارعون في السفر بسيارات أجرة وحافلات إلى تل ابيب على بعد ٧٥ كيلو متراً.

أما الصغار الذين يمكثون في البيت فيقسمون يومهم بين الذهاب إلى المدرسة والقاء الحجارة على الجنود الذين يردون باستخدام العصي وأحياناً باطلاق النار بالذخيرة الحية.

وقال أبو سلطان «قلت لإبني الذي يبلغ تسع سنوات، إذا استمريتم في القاء الحجارة سيقبضون علينا ويهدمون بيتنا. فأجاب قائلاً: هل تعتقد أننا سنستعيد وطننا مجاناً من دون تضحية؟».

وقد انخفض مستوى معيشة العائلة بدرجة كبيرة نتيجة للانتفاضة.

فقد تدنى دخلها بمقدار الثلث بسبب إضرابات دعت إليها القيادة السرية للانتفاضة وحظر تجول مستمر منذ ١٣٤ يوماً فرضه الجيش الإسرائيلي لقمع مظاهرات عنيفة.

ويحصل أفراد عائلة أبي طاقية على مساعدات من وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين التابعة للأمم المتحدة (اونروا) التي تدير خدمات إنسانية في مخيم جباليا وكذلك من منظمات فلسطينية خيرية ومن اللجنة الشعبية المحلية السرية للانتفاضة.

ويقول جميل أبو طاقية وهو خباز في غزة «مالياً حالتنا أسوأ بكثير منذ قيام الانتفاضة. ولكننا لم نقم بالانتفاضة لتحسين مستوى معيشتنا بل لاستعادة كرامتنا».

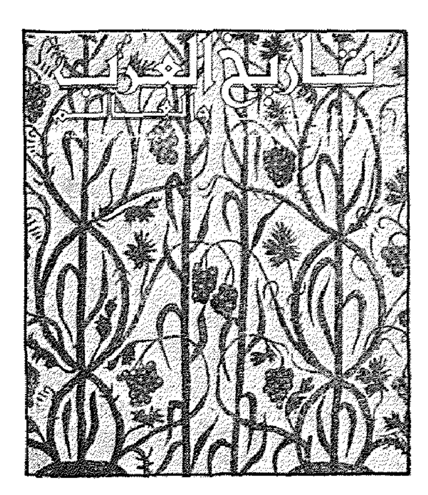
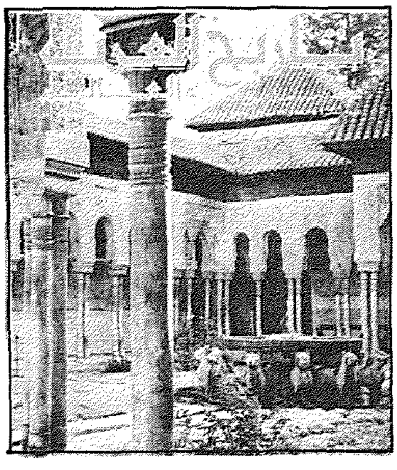
وقد تحقق الهدف فعلاً. فبالرغم من بؤس حياتهم اليومية يجمع أهل جباليا بين اعتزاز جديد بهويتهم الفلسطينية وثقة بالنفس فشلت في تحطيمها سياسة القبضة الحديدية الأسرائيلية.

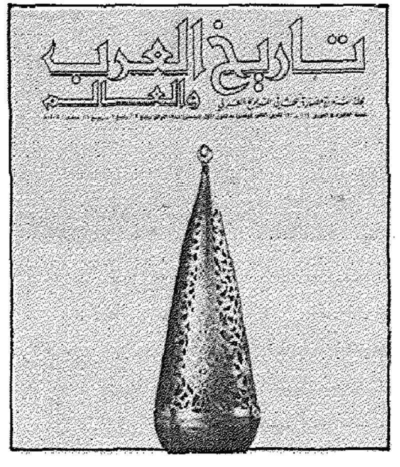
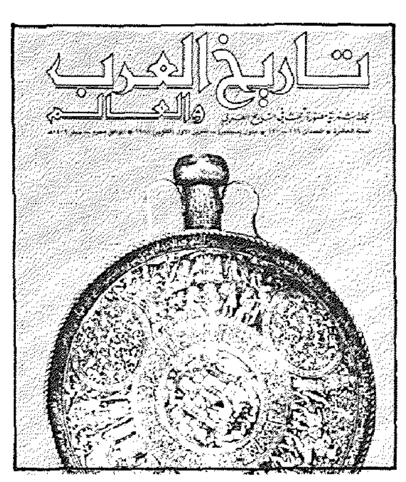
وتقول «الأونروا» أن القوات الإسرائيلية منذ قيام الانتفاضة قتلت ١٤ لاجئاً من مخيم جباليا وأصابت ٢١٣ بإطلاق الرصاص و٢٢٠١ بالضرب و٣٤٣ بطلقات مطاطية و٩٩٤ بالغاز المسيل للدموع.

وقال عامل في منظمة إغاثة دولية «بالتأكيد يوجد شخص في كل عائلة ضرب أو أطلق عليه الرصاص أو اعتقل لقد تأثر جميع السكان».

أضاف قوله «دمرت إلى الأبد فكرة الاحتلال الحميد. وإذا استمر الوضع على ما هو عليه فإن احتمالات التوصل إلى تسوية سلمية ستبدو قاتمة جداً».




الفهرس العام للسّنة العاشرة (١٩٨٨)

لبنـــان

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
■ صبحي المحمصاني ودراساته في الفقه الإسلامي وتاريخ التشريع.	د. رضوان السيد	١١١ ـ ١١٢	٢
■ الثقافة الإسلامية في لبنان منذ الحرب الأولى.	د. رضوان السيد	١١٥ ـ ١١٦	٢
■ اليقظة العلمية في بيروت العثمانية.	د. حسان حلاق	١١٥ ـ ١١٦	٢٠
■ الكرك ـ نوح ودورها السياسي والحضاري في العالم الإسلامي.	تأليف: د. حسن عباس نصر الله مراجعة: د. حسين سلمان سليمان	١١٥ ـ ١١٦	٤٠
■ سور وأبواب بيروت العثمانية.	د. حسّان حلاق	١٢١ ـ ١٢٢	١٤

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة

فلسطين

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
■ تحت الاحتلال الإسرائيلي، البحر الميت.	«قسم التوثيق والأبحاث»	١١٣ ـ ١١٤	٧٣
■ مدن عربية تحت الاحتلال، بيت لحم.	«قسم التوثيق والأبحاث»	١١٥ ـ ١١٦	٧٢
■ ثورة الحجارة... ملحمة جديدة في تاريخ العرب الحديث.	فاروق البربير	١١٧ ـ ١١٨	١
■ ثورة الحجارة	المطران جوج خضر	١١٧ ـ ١١٨	٢
■ هذه الانتفاضة الفلسطينية المباركة	السفير د. حليم أبو عز الدين	١١٧ ـ ١١٨	٤
■ نضال الشعب الفلسطيني من خلال ثوراته في عهد الانتداب (١٩٢٠ ـ ١٩٤٨)	العميد الركن د. ياسين سويد	١١٧ ـ ١١٨	٧
■ الانتفاضة وحق الشعب المضطهد في المقاومة	د. محمد المجذوب	١١٧ ـ ١١٨	١٨
■ أسطورة الحجر الكنعاني من داود وجليات إلى جيل الانتفاضة	د. بيان نويهض الحوت	١١٧ ـ ١١٨	٢٤
■ ضوء الانتفاضة في ظلم السماء العربية	د. أسعد عبد الرحمن	١١٧ ـ ١١٨	٣٦
■ قراءة باللبناني لانتفاضة فلسطين	طلال سلمان	١١٧ ـ ١١٨	٤٠
■ أثر الانتفاضة في الكيان الصهيوني	محمود سويد	١١٧ ـ ١١٨	٤٢
■ الغاضبون (قصيدة)	نزار قباني	١١٧ ـ ١١٨	٥٢
■ لن أهاجر (قصيدة)	بقلم شاعر عربي في الأرض المحتلة	١١٧ ـ ١١٨	٥٤
■ ثورة الحجارة (قصيدة)	هارون هاشم رشيد	١١٧ ـ ١١٨	٥٧
■ نشيد الحجارة إلى أطفال فلسطين... كل فلسطين (قصيدة)	سليمان العيسى	١١٧ ـ ١١٨	٥٨
■ سيمفونية الأرض (قصيدة)	د. سعاد الصبّاح	١١٧ ـ ١١٨	٦١

شهادات في الخارج:

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
■ الصحافة العالمية	مايكل أدامز، قسطنطين غايفاندوف، امينون كابيليوك	١١٧ ـ ١١٨	٦٢
■ الصحافة الإسرائيلية	آفي بنياهو، د. موشيه شميش، ليفي موراف، يهودا تسور احانوم	١١٧ ـ ١١٨	٦٧
■ مدن عربية تحت الاحتلال، حيفا	«قسم التوثيق والأبحاث»	١١٩ ـ ١٢٠	٦٨
■ مدن عربية تحت الاحتلال، مدينة بير السبع	«قسم التوثيق والأبحاث»	١٢١ ـ ١٢٢	٦٥

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة

التاريخ العربي الإسلامي

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
■ العالم العربي وشمال أفريقية في العصر اليوناني (من الاسكندر إلى أغسطس)	د. نقولا زيادة	١١١ ـ ١١٢	١٢
■ الزعامات المحلية في سورية (١٥٧٥ ـ ١٦٥٠)	تأليف: د. عبد الرحيم أبو حسين مراجعة: د. حسين سلمان سليمان	١١١ ـ ١١٢	٢٢
■ الجيش العربي الإسلامي في عصر موقعة حطين ووسائل الإسناد الأخرى	د. شوقي شعث	١١١ ـ ١١٢	٤٤
■ العالم العربي وشمال أفريقية في العصر الروماني والبيزنطي (من أغسطس إلى الفتح العربي)	د. نقولا زيادة	١١٣ ـ ١١٤	٢٠
■ من تاريخ الدولة البويهية. البويهيون: أصلهم ونشأتهم	د. حسن منيمنة	١١٣ ـ ١١٤	٤٢
■ إرناط الفارس اللص: نشأته، حياته، غزواته ودوره في تهيئة الظروف لمعركة حطين (القسم الأول)	د. برهان العابد	١١٥ ـ ١١٦	٤٣
■ الأندلس في عصر ابن زيدون ـ ملاحظات جغرافية (القسم الأول)	د. نقولا زيادة	١١٩ ـ ١٢٠	٢
■ إرناط الفارس اللص (القسم الثاني)	د. برهان العابد	١١٩ ـ ١٢٠	١٢
■ معركة ذات الصواري بين التاريخ وفن الحرب	اللواء البحري الركن المتقاعد وفيق بركات	١١٩ ـ ١٢٠	٣٤
■ الأندلس في عصر ابن زيدون (القسم الثاني)	د. نقولا زيادة	١٢١ ـ ١٢٢	٢
■ اختطاف أحمد بن بلة ورفاقه بداية نهاية الاستعمار في الجزائر	آلان دوكو، ترجمة د. رياض العالي	١٢١ ـ ١٢٢	٥٢

حضارة عربية

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
■ القيم والأعراف الأخلاقية في الحضارة العربية الإسلامية	د. زاهية قدورة	١١٣ ـ ١١٤	٢
■ كيفية إنتاج الكتاب قبل القرن التاسع عشر	د. يوسف فرح عاد	١١٣ ـ ١١٤	٢٨
■ آثار إسلامية: زخرفة المقرنص الإسلامية	قسم التوثيق والأبحاث	١١٥ ـ ١١٦	١٨

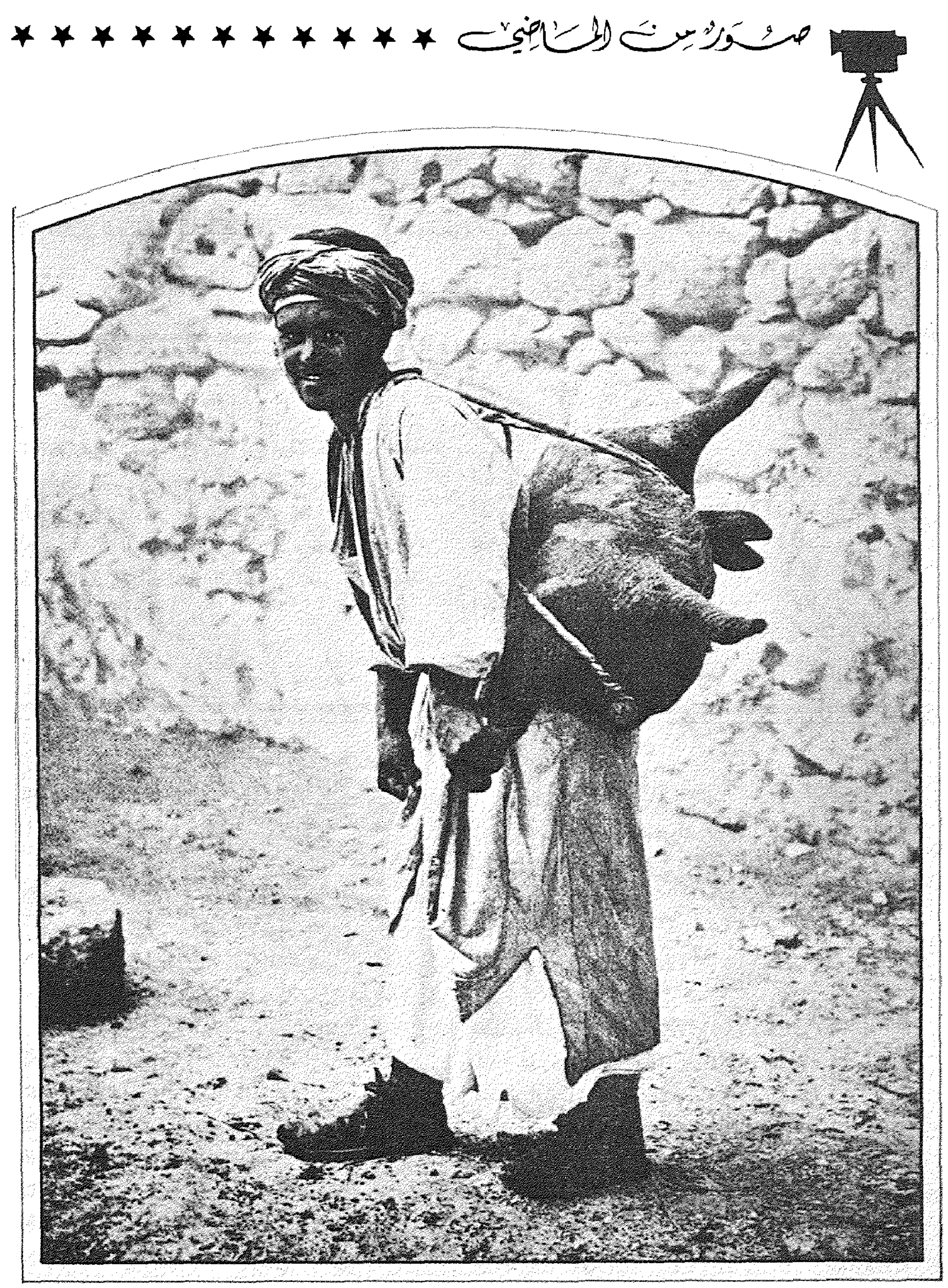
الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
المطرات في العهود الإسلامية «نماذج من معروضات متحف دمشق الوطني»	أحمد قرزة الطرقجي	١١٩ ــ ١٢٠	٤٠
المنبر الحلبي للمسجد الأقصى	المهندس الدكتور محمود فيصل الرفاعي	١٢١ ــ ١٢٢	٤٠

وثائق ومعاهدات

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
كتابه(ص)بين المهاجرين والأنصار واليهود، وهو دستور الدولة البلدية بالمدينة	إعداد: شذا عدرة	١١١ ــ ١١٢	٧٠
معاهدة النبي العربي(ص)مع اليهود	إعداد: شذا عدرة	١١٥ ــ ١١٦	٦٤
معاهدة الرسول العربي مع نصارى نجران	إعداد: قسم التوثيق والأبحاث	١١٩ ــ ١٢٠	٦٤
معاهدات الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب مع أهل مدن إيرانية	إعداد: شذا عدرة	١٢١ ــ ١٢٢	٦٢

متفرقات

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
نابليون الثالث ينتصر بلعبة الباليت وبسمارك يثأر باحتلال فرنسا	إعداد: بيار روبير لوكليرك ترجمة: إنعام الجندي	١١١ ــ ١١٢	٥٦
تاريخ السيارة وتأثيرها على الأدب والفن عموماً	أبريخ بيتر	١١١ ــ ١١٢	٦٢
رجال وأفكار: بطليموس الثالث	«قسم التوثيق والأبحاث»	١١١ ــ ١١٢	٨٠
رجال وأفكار: خليل السكاكيني (١٨٧٨ ــ ١٩٥٣)	«قسم التوثيق والأبحاث»	١١٣ ــ ١١٤	٤١
تاريخ الساعة	شذا عدرة	١١٣ ــ ١١٤	٥٨
الفنان اليمني: فؤاد الفتيح	«قسم التوثيق والأبحاث»	١١٣ ــ ١١٤	٦٨
ملاحظات حول ظاهرة الإرهاب الدولي	د. محمد المجذوب	١١٥ ــ ١١٦	٨
دائرة المعارف: هدنة	«قسم التوثيق والأبحاث»	١١٥ ــ ١١٦	٧٩
البساط السحري	شذا عدرة	١١٩ ــ ١٢٠	٥٢
دائرة المعارف: بروتوكولات حكماء صهيون	«قسم التوثيق والأبحاث»	١١٩ ــ ١٢٠	٧٨
العصامي الموهوب: جرجي زيدان	طاهر الطناحي	١١٩ ــ ١٢٠	٢٤
البلقنة: مشاكلها وحلولها	د. لطفي المعوشي	١٢١ ــ ١٢٢	٢٧
رجال وأفكار: وليم شكسبير	الياس فياض طراد	١٢١ ــ ١٢٢	٣٧



□ «سقّا» من القدس (النصف الثاني من القرن التاسع عشر).
من كتاب: Abdulhamid's Palestine. by Jacob M. Landau (London-1979).



□ منمنمة لطبيب يعالج بالوخز بالإبر (القرن الثالث عشر ميلادي).

من كتاب: La Turquie, Collection Monde et Voyages - LAROUSSE.